تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧

832.6
L63uAr
15 APR 2002
Circulation Dept.
Feb 67
15 APR 2002
Circulation Dept.

832.6
L63uA

العرس المأتم

تأليف: الشاعر الالماني ليسنك
ترجمة: الدكتور امين رويحه

— ١٩٥٥ —

جميع الحقوق محفوظة لدار الحكمة
بيروت

جلس الامير هيتور كونساكا الى مكتبه وقد تراكمت فوقه الاوراق والرسائل ؛ وراح يقلب بعض هذه الرسائل والاوراق بحركة عصبية ، كمن سئم عمل الامارة الرتيب ، أو كمن في جوّه من الغيوم ، ما يعكر عليه صفاءه في صباح ذلك اليوم . وخاطب نفسه قائلاً :

– شكاوى .. لا شيء غير الشكاوى .. لا شيء غير الاستدعاءات .. أعمال مضنكة مرهقة ، ومع ذلك فالناس يغبطوننا ، ولا يدرون .. آميليا ؟

وكانت مفاجأة ، حملته على الهتاف عفواً بهذا الاسم ، فمن تكون صاحبة هذا الاستدعاء ؟

وقرأ التوقيع مرة ثانية ، فقال :

– آميليا برونيشي ! .. وتلك آميليا كالوتي ... فما حاجة هذه « الآميليا » الجديدة ؟

وقرأ الاستدعاء بشيء من الاهتمام ، كأن اسم صاحبته قد أنساه تبرّمه بالعمل ، حتى اذا انتهى من قراءتـــه ، هزّ رأسه قائلاً :

– إنها تطلب كثيراً ، كثيراً جداً ، ولكن اسمها آميليا ، وإن لم تكن آميليا كالوتي .

وفي غير تردّد خطّ على الاستدعاء :

ـ موافق .

وكمن اعتزم التوقف عند هذا الحدّ من العمل ، قرع الجرس داعياً الحاجب ، فما مثل هـــذا بين يديه ، حتى قال له :

ـ أفي غرفة الانتظار احد من مستشاريّ ؟

فانحنى الحاجب ، واجاب :

ـ كلا ، يا مولاي .

فكتم الامير بعض غيظه ، وقال :

ـ لقد بكرت اليوم في العمل ، رغبة في اغتنام فرصة هذا الصباح الجميل للتنزه ، وأودُّ الخروج برفقـــة رئيس الديوان مارينللي ، فاستدعه الي .

وعاد الى التفكير :

***

كان الأمير هيتور كونساكا ـ امير كواستالا ـ من أولئك الاسياد الذين تعودوا الاستئثار بكل ما هو جميل في نطاق نفوذهم وسيادتهم .

ومن يعرف أسياد الأجيـــال المتوسطة في اوربا وفي

سواها ، لا يجهل الى أي حدّ من حدود الانانيـة ، والى أي مدى في دنيا الاستهتار بحقوق الغير ، كانوا يذهبون متأثرين بهواهم الشخصي ، مستبيحين كل محرّم لاتباع هذا الهوى .

وكان الأمير في طور الشباب ، يتنقل بهـــواه حيث يحلو له ان يتنقل ، ويبذل من نفوذه ومن ماله ، لتوفير ما يشتهي لنفسه من اسباب اللذات ؛ ومن حواليه بطانة ، تتهالك في كسب رضـــاه ، على غرار بطانات الملوك والامراء ، في ذلك العهد . وفي كل عهد ...

ولما ان النفوس الأبية الكريمة ، تلك التي تعاف التمرغ في وحول الذل ، وتأبى التملق والـــتزلف والزحف على الركاب ، لكسب رضى الاسياد ، حكاماً وامراء وملوكا ، تؤثر الانزواء على الظهور في مثل هذا المظهر الخـــداع ، هكذا ما عتمت كواستالا ، ان رأت شرفـاء النفوس من ابنائها يغادرون بلاطها ، ويقبعون في منازلهم او في قرى ومزارع لهم في الأرياف . والجبال .

ولم يكن هذا ليحمل الامير وبطانتـه ، على شيء من الأسف ، بل كانوا على العكس مرتاحين اليه ؛ لأن ابتعاد

اولئك « المحافظين السخفاء ! » عنهم ، يفسح المجال لعبثهم ، دون ان يضطروا حتى الى الاستتار ، حين يعبثون .

ولم يكن يفكر في الزواج .

ولِمَ يفكر في ذلك ... لِمَ يفكر في ان تكون له امرأة واحدة ، وكل امرأة في كواستالا ، تتمنى لو انها له ؛ يفتح لها خزائن قلبه ، وبيت ماله في آن واحد ؟

ولكن مصالح الامارة وسياستها كانت هناك .

فليس للامير ان يستمرّ في عزوبته ، وكما ان آباءه واجداده قد تزوجوا ، وانجبوا اولياء للعهد ، هكذا كان عليه هو ان يتزوج وينجب .

وما كان له ان يختار عروسه ؛ فالسياسة والمصالح ، هي التي تختار هذه العروس ، لان الامير ليس لنفسه ! بقدر ما هو للدولة ! ...

فعلى امير كواستالا ان يطلق اذن ، عزوبته .

واذا بالسياسة والمصالح تختار له المركيزة اورزينا ، ابنة أمير ماسّا ، جارة كواستالا ، ولم يكن له ان يتردد فطلب يد المركيزة واعلن خطبته عليها .

ولم تكن الفتاة النبيلة على قسط وافر من الجمال ،

ولكن على الامير ان يرضى بها على علاتها ، وان يخادع نفسه في تقدير مزاياها ومحاسنها ، إن لم يكن لاقناع نفسه ، وارضائها بالواقع ، ففي الاقل لاقناع شعبه ، برضاه عما فعل ! ..

وللمصانعة حد ، ينتهي حيث يتغلب الطبع على التطبع ، وتنطلق السبحية من حيث اريد لها الكبت ، الامر الذي حاول الامير ان يتجاهله في البدء ، حتى اذا تدخل القدر ، لم يبق له إلا الانحناء لأمره .

لقد كانت اميرة . هذا صحيح ! ولكن في كواستالا اميرات جمال ، استوين على عرش النفوس ، وتحكمن في القلوب ! وقد عرف الامير الشاب منهن كثيرات ، وذاق بين ايديهن انواعاً من اللذة ، ما كان لينصرف عنها ، لو لم يبعث القدر في طريقه الفتاة :

ـ آميليا كالوتي ؟

ليس والدها العقيد كالوتي ، بنكرة لديه ، فهو يعرف الرجل الذي خدم البلاط جنديا باسلا ، وكان مثال المواطن المتمسك بالتقاليد القومية النبيلة ، ولم يترك الجندية والبلاط والمجتمع ، إلا لتمسكه بهذه التقاليد .

فهو يرى ان الاخلاق في مجتمعه قد انحطت ؛ وفي

البلاط وحاشيته ، انحراف عن تقاليد الشرف والنبل . وحتى في السلك الذي شب فيه وشاب ، ووقف سيفه للحفاظ على تقاليده ، لم يبق الكثير من هذه التقاليد التي على التمسك بها ، يتوقف خير الوطن ، وتقدمه ، وسلامة كيانه .

تذكر الامير العقيد كالوتي ، دون ان يأبه للاسباب التي حملته على اعتزال الخدمة ، ولم يبق له من هم إلا الفتاة . فهو يريد ان يجتمع بها وان يحدثها ، فبات يرقب الفرص لذلك ، حتى كان عيد من اعياد الامارة الكبرى ، وخرج الناس الى الشوارع والساحات ، يسرحون فيها ويمرحون .

وكان على الامير — بحكم التقاليد — ان يشارك الناس في ابتهاجهم ، فراح يتنقل بينهم من شارع الى شارع ومن ساحة الى ساحة ، وهمه الوحيد ان يلتقي الفتاة التي سحره جمالها ، قبل ان يتاح له التملي عن كثب ، من النظر الى مفاتن هذا الجمال .

ولم تكن آميليا من فتيات المدينة اللواتي تعوّدن اللهو ، فهي مثال أبيها عفةً وإباءً ، وترفع أخلاق . وكان أبوها بودّ لو انها تهجر المدينة مثله ، وتروح تنزوي على غراره في قريته العزيزة « سابيونيتا » ولم تكن الفتاة لتعارض مشيئته ،

ولكن أمها أرادت البقاء وإياها في المدينة ، لتتمكن من تربيتها التربية التي تحتاج في المستقبل اليها ؛ فهي في نظرها معدة لأن تلعب دورها على مسرح الحياة الاجتماعية ، في غير الاوساط القروية ، ومن الجريمة حملها الى تلك الاوساط التي لم تألف العيش فيها ، بينا في المدينة المجال الرحب لاظهار جمالها ، ومزاياها . وفيها من فتيان المجتمع من هي أهل لهم وهم أهل لها ، ومنهم من يتمسك كزوجها بالعادات والتقاليد الشريفة ، دون ان يحمله تمسكه بها على الابتعاد عن مجتمعه .

وما ارادته الام كان .

فالجمال المتدفق من القلب الفتي الطاهر ، ما عتم ان التقى صنوه ؛ فتى من اكرم فتيان الامارة واعرقها محتداً ، هو المركيز أبياني الذي لم تعرف كواستالا أعف منه نفساً ، الامر الذي جعله يقاطع البلاط ومن فيه ، وينصرف الى شؤونه الخاصة ارضاء لنفسه الحرة .

وتفاهم الفتيان لأول وهلة .

وتعاهدا على الزواج .

وكانت الخطبة ...

ولم تكن الفتاة ، بالطبع ، سوى فتاة ؛ تبتهج نفسها بالاعياد ، وترى لها فيها نصيباً كما لغيرهـــا من الفتيات . وتأبى امها إلا ان توفر لها اسباب الهناءة البريئة ، فخرجت بها في صباح العيد المتقدم ذكره الى الشوارع ، كالزنبقة التي لم يكن لسوى النور والندى ان يمسّها ، فاذا بهـا في غمرة العيد ملكة العيد ، لا تتمالك الجماهير من تحيتهـــا اصدق تحية ، حيثما بدت ، في تلك الغمرة الزاخرة بالشعور الشعبي ، طلعتها البهية .

ووقعت عين الامير الباحثة فجأة عليهـا !

وفي لحظة ، ودّت الفتاة لو انها لم تكن ؛ اقبل يحيّيها ، تحية ادركت هي وحدها ما وراءها ، ولم يدرك الجمهور منها سوى انها بادرة اعجاب من سيد البلد ، بالجمـــال والطهر اللذين اجلساها على عرش القلوب . فتعالى الهتاف بحياتهـا بشكل ما عنّ ان جعل الخوف ، يحلّ محل الحياء في نفسها .

وحدثها الامير بلغة أزالت بعض خوفها .

ولم يكن في التحدث اليها ، اميراً اكثر منه ، رجلاً عادياً ، رجلاً يستهويه الجمال ، ويروّض من طباعه ، وان تكن من طباع من تعودوا ان يروا انفسهم من غير طينة البشر .

فكان على الفتاة الطاهرة القلب ، ان تصغي – بالرغم من خوفها – اليه ، وان لا تشك في حسن نيته ، مما حمله على الاعتقاد ، بانها لن تتردد في الارتماء بين ذراعيه الاثيمتين ، حين يدعوها الى ذلك .

ومن هنا كانت المفاجأة ، حينما قرأ الشطر الاول من اسمها على الاستدعاء ، حيث خيل اليه في ومضة بارقة ، من حمى التفكير ، انها هي الكاذبة ، وانها ... ولكن الشطر الثاني من الاسم ، ما عتم ان اعاده الى الواقع ، ومع ذلك فقد تفاءل بالخير ، وبات ينتظر المفاجأة الكبرى ، تلك التي ستجعل من حلمه ، بامتلاك تلك المخلوقة الساحرة ، واقعاً ملموساً .

وكان قد تناسى المركيزة خطيبته ، ومصالح الامارة وسياستها .. فهذه المركيزة ، لا تحتل بعد ، اية مكانة من نفسه ، وقد اراد افهامها هذا ، بأكثر من طريقة ، وتأبى ان تفهم ... فهي تزعجه برسائلها ، وبما يخيل اليها ، انه كاف لصرفه عن اية امرأة سواها ، وتجهل الحمقاء انها آخر من من النساء يقوى على ذلك .

***

وما خرج الحاجب حتى عاد يقول :

ـ لقد بعثت من يدعو رئيس الديوان يا مولاي ؛ وفي الباب رجل يحمل هذه الرسالة من المركيزة اورزينا .

فهتف الامير ، كمن لدغه عقرب :

ـ من المركيزة ...

وتذكر في الحال ان الرصانة تقضي بتغيير لهجته ، فقال :

ـ حسن .

وتناول الرسالة ، فقال الحاجب :

ـ اينتظر الرسول الجواب ؟

ـ سأبعث بجواب اذا كان الامر يقتضي ذلك ... أفي المدينة هي ؟

ـ منذ البارحة .

فغمغم الامير :

ـ نكبة ... أردت ان اقول نعمة ... وعلى هذا فما على الرسول ان ينتظر .

ـ واشار الى الحاجب بالخروج .

ولما بات وحده ، صرف باسنانه حنقاً ، وقال :

ـ هذه المركيزة ... احاول الهرب منها وتتبعني ...

اما من سبيل افهامها اني عالق في غير شركها ؟

وعاد الحاجب من جديد يعلن :

– الرسام كونتي .

فانبسطت اسارير الامير بعض الانبساط ؛ وقال :

– ليدخل .

وكان كونتي من كبار الرسامين وقد قرّبه الامير تقديراً لفنه ، ونسي انه كلفه بوضع رسم للمركيزة ، وخيل اليه انه قادم كالعادة لاثبات وجوده ، فما دخل عليه حتى استقبله بجفاوة ، قال :

– اهلاً ، يا كونتي ... كيف حال الفن ؟

فتأوه الرسام ، قائلاً :

– الفن ... كعادته يامولاي ، يركض وراء الرغيف .

فابتسم الامير ، وقال :

– هذا ما يجب ان لا يكون في امارتي ... بكل تأكيد لا ... ولكن على الفنان ان يعمل .

– ان يعمل ... هذا ما يودّ ... ولكن الافراط والتبذل في العمل يذهبان بشهرته كفنان .

– لا اعني الافراط والتبذل : بل اعني الاجتهاد في

العمل ... وما عندك لي ؟

ـ لقد اتيتك بالصورة التي امرتني بصنعها يا صاحب السموّ ، وبصورة اخرى لم تأمرني بصنعها ، ومع ذلك فانا واثق بانها ستحوز رضاك .

ـ بالصورة التي امرتك بصنعها ... أية صورة هذه ؟

ـ صورة المركيزة اورزينا .

فكاد الامير يرسل صرخة غضب ، ولكنه تمالك محافظة على هيبة الامارة ، واتقاء البوح بما يريد ان لا يعرفه الناس ، فقال للفنان :

ـ صحيح ... ولكني اوصيتك عليها منذ امد بعيد .

فقال الفنان بشيء من الخبث :

ـ لا يجهل مولاي ، ان سيداتنا النبيلات الجميلات لا يسهل الوصول اليهن لرسمهن كل يوم ، ومنذ ثلاثة اشهر ، وافقت المركيزة على الجلوس امامي لرسمها ، على ان يتم ذلك في جلسة واحدة .

ـ واين هي الصورة ؟

ـ في غرفة الانتظار ، وسآتي بها حالاً .

فوجد الامير لو انه لا يعود ... لا يعود بالصورة

التي بات يكره صاحبتها ... وما دام لا بدّ من عوده ، فخير ان يأتيه بالصورة ، من ان يأتيه بصاحبتها ...

وكاد يضحك لهذا ... كاد يضحك ... ولكنه توقف عن الضحك ، ليفكر في ما حمله على تكليف الفنان بصنع صورة للمركيزة ... اكان حقاً يحبها ، وحبه لها هو ما حمله على ذلك ؟ !

ربما كان هذا ... ولكنه الآن يكرهها ... فما عساه ان يعمل بصورتها ... اما كان الافضل ان يأتيه هذا الفنان الاحمق بصورة سواها .. ؟

وتذكر ان ثمة صورة اخرى ... صورة من تكون هذه ... الأحدى النساء الجميلات ، وقد اراد كونتي ان يفاجأه مفاجأة مستحبة بها ؟

سيرى ...

وعاد الرسام بصورتين ، فوضع إحداهما مقلوبة على كرسي ، وعرض الثانية على الامير ، قائلا :

– ارجو ان يلاحظ سيدي حدود الفن ، لأن الكثير من دقائق الجمال يقع خارج حدوده .

فكان على الامير ان « يلاحظ » مكرهاً ، فقال :

ـ ممتازة يا كونتي ، ممتازة جداً ، والفضل في ذلك يعود الى فنك ، الى ريشتك ... ولكن فيها كثيراً من التجميل ، كثيراً جداً .

فقال الفنان بخبث :

ـ إن « الاصل » لا تشاطرك هـذا الرأي يا سموّ الامير ... والواقع انها لم تجمّل بأكثر مما يقتضيه الفن ، والفن يرسم الصورة كما تصورها الطبيعة المجسمة ـ هـذا اذا كانت هناك طبيعـة مجسمة ـ وذلك بتجنب النواقص التي تصاب بها المادة الزائلة .

ـ هذا من ميزات الفنان المفكر ... ولكنك تقول : ان « الاصل » لا ترتئي ذلك ؟

ـ عفواً يا مولاي ... فـ « الاصل » شخصية ادين لها بالاحترام الكلي ، ولم اقل ما يمسها بسوء .

ـ حسناً ... وما الذي قالته « الاصل » ؟

ـ لقد قالت المركيزة إنهـا راضية ، أن لم يكن منظرها اقبح من ذلك .

فداخل الامير بعض الارتيـاح ، قال :

ـ اقبح ... أوه ، ايها « الاصل » الصادق .

وشجع قوله الرسام ، فقال :

– وعندما قالت ذلك يا مولاي ، قالته وعلى وجهها ملامح لم تظهر طبعاً في الصورة .

فقال الامير مؤكداً :

– وهذا ما عنيته بقولي ... وهذا ما دعاني الى القول : « ان في الصورة تجميـــلاً كثيراً » ... فانا اعرف تلك الملامح المتعجرفة الساخرة التي من شأنها ، ان تشوه اجمل الوجوه ، مع اني لا انكر ان السخرية على فم جميل قد تزيد في جماله ، بشرط ألا تظهر تلك السخرية عليه بشكل يغير ملامحه ، وان تكون العيون حارسة للفم الساخر ... وأنّى لمركيزتنا الطيبة مثل هذه العيون الحارسة ، حتى في هذه الصورة التي بذلت في تجميلها ما بذلت من عبقريتك وفنك ؟

– إني لجدّ متأثر يا صاحب السمو .

– لا داعي لتأثرك ... لقد اصلحت انت كل مـــا يستطيع الفن اصلاحه ، من هذه العيون الجامدة الجاحظة ، ولم تقصر ... وقل لي يا كونتي : أيستطيع المرء ان يحكم على صاحبة الصورة وطباعها من صورتها نفسها ؟

وقبل ان يجاوبه الفنان على سؤاله ، تابع :

ـ هذا ما كان يجب ان يكون ، لولا انك استطعت ان تحيل العجرفة الى وقـــار ، والسخرية الى ابتسامة ، والكآبة الى اتزان وهدوء .

ولم يفهم الرسام من قوله سوى انه ينتقص من قدرته على اداء رسالة الفن ، فقال بشيء من الحدة :

ـ نحن الرسامين يا مولاي نجتهـد في اخراج الصورة وفق حرارة المحبين ، وفي ان تكون هذه الحرارة منسجمة مـــع الحرارة التي رافقت التوصية على الصورة ... نحن وحدنا الذين نرسم الحب في العيون ، وعيون الحب وحدها هي التي يجب ان تحكم علينا .

ـ لقـــد كان يجب إذن ان تأتي بهـذه الصورة منذ شهر ... ابعدها ؛ وهات الثانية .

فقال الفنان ، وقد امسك بالصورة الثانية مقلوبة :

ـ إنها صورة امرأة ايضاً .

فبرقت اسرة الامير ، وقال :

ـ لهذا اريد رؤيتها ... بـــل الأفضل ألاّ اراها ، فقد لا تنطبق في شيء على المثل الأعلى الذي يقيم هنا ...

او هنـــا ... في راسي وفي قلبي ... وكم كنت اتمنى يا كونتي ، لو يتاح لي ان اجد فنك في صورة اخرى .

فقال الرسام ، وكأنه قد دخل الى رأس الامير وقلبه ، وعاد منهما بالصورة التي يحمل :

– هناك كثير من الآثار الفنية تستحق التمجيد اكثر من آثاري ، ومع ذلك فأنا واثق بأن ليس ثمة ما يستحق ان يمجد اكثر من هذا .

وقلب الصورة ... فتراجع الامير مأخوذاً برؤيتهـا ، وقال كمن لا يصدق عينيه :

– ما هـذه ... أصورة من فنك يا كونتي ، ام من خيالي ؟!

وهتف بما لم يتمالك من كتمانه :

– آميليا كالوتي !

ولم يكن على الفنان إلا ان يجاريه في اندهاشه ، فقال :

– كيف يا مولاي ... أتعرف هذا الملك ؟

ولم يرَ الأمير بداً من العود الى نفسه ، فتمالك مـــا أمكنه ان يتمالك ، وقال وعيناه عالقتان في الصورة :

– أعرفها .. بعض المعرفة .. لقد التقيتها صدفة منذ

بضعة اسابيع ، وكانت برفقة أمها ، ولم أرها بعد ذلك ، إلا في المعابد ، حيث لا يجوز التطلع .. واعرف والدها ولكنه ليس بصديق لي ، فقد سبق ان عارض بشدة ، طلبي في سابيونيتا أحد بقايا السيوف ، وهو ذو إباء وخشونة ، ومع ذلك فانه طيب ووديع .

ـ والدها .. ولكن هذه الصورة هي للابنة .

ـ كأنها والله سرقت من المرآة .

وتابع وعيناه لا تفارقان الصورة :

ـ أتعلم يا كونتي ، ان أصدق ثناء تزجيه الى الفنان ، إنما هو ان تنسى في مثل هذا الموقف اثارة الثناء عليه ؟

فقال كونتي ، كمن يريد ان يدخل بقوله الى اعماق الامير ، لينتزع سرّه من صدره :

ـ مهما يكن الامر فهذه الصورة حرمتني سعادتي ... وانا مع ذلك سعيد بهذا الحرمـــان .. فنحن يا مولاي لا نرسم بعيوننا مباشرة .. وما اكثر ما يضيع علينا في الطريق الطويلة الممتدة بين عيوننا وايدينا وريشتنا .. ولكني اعلم ما ضاع ومتى ضاع أيضاً ، وأنا فخور بهـذا ، لأنه يقربني كثيراً من نفسي ، ويجعلني أعتقد أني رسام كبير

موهوب ، وأن الفضل في ذلك لم يكن دائماً ليدي .. أما ترى يا مولاي ، ان ما من شيء كان يمنع رافائيل ان يكون أكبر عباقرة الدنيا ، في فن الرسم ، حتى ولو انه وُلِد دون يدين ؟

ولم يكن يبدو ان الأمير يسمعه .. فعيناه العاشقتان بالصورة ، كانت قد نقلت حسّه بأجمعه اليهـــا ، ولكن توقف الفنان عن الكلام ، أعاده قليلاً الى الواقع ، فقال وقد حول نظره عن الصورة :

– ما الذي قلته يا كونتي ؟

فعلم الفنان أن كلمة واحدة في مثل هذا الموقف خير من الف كلمة ، فقال :

– لا شيء يا مولاي .. سفسطة .. لقد رأيت روحك كلها في عينيك ، وأنا أحب الأرواح التي تطل من العيون .

– وعلى هذا فأنت ترى ان آميليا كالوتي من أجمـــل جميلات المدينة ؟

– من أجمل جميلات المدينة ؟.. أتسخر يا مولاي ، ام أنك كنت تنظر ولا ترى ، كما انك تصغي ولا تسمع ؟

ففهم الامير ما يعني ... وراح ينظر من جديـد الى

الصورة ، ويقول :

ـ يا عزيزي كونتي ... ليس للانسان أن يثق أبداً بعينيه ، والواقع الذي لا جدل فيه ، ان الرسام وحده يستطيع الحكم على الجمال .

ـ على الشعور إذن أن ينتظر حكم الرسامين ... ودعني اعترف يا مولاي بأن أعذب ساعات عمري ، هي التي جلست فيها آميليا كالوتي اليّ ... فهذا الرأس ، وهذه الجبهة ، وهاتان العينان ، وهذا الأنف ، وهذا الفم ، وهذه الذقن ، وهذا العنق ، وهذا الصدر ، وهذا التركيب كله ؛ إنه لأروع آيات الجمال الأنثوي .

فقال الامير بلهفة :

ـ ولمن صنعت هذا الرسم يا كونتي ؟

ـ لقد صنعت رسمين ، لأبيها واحد ، وهذا الثاني .

ـ ولم تعد احداً بهذا ؟

ـ إنه لك ... أيعجبك ؟

فانبسطت أسارير الأمير ارتياحاً ، وقال :

ـ أيرى بشريٌ هذا المثال الكامل للجمال ويضنُّ عليه حتى بما هو أغلى من الاعجاب ؟

وأشار الى رسم المركيزة ، قائلا :

ـ أما هذا فخذه ، وأوصِ له على إطار ، وليكن الاطار جميلا وثميناً ، لأنه سيعرض ... وسأحتفظ برسم آميليا ، ليس لجمال صاحبته فقط ، بل لأن عبقريتك يا كونتي تتجلى في كل خط من خطوطه ايضاً ... واعيد قولي لك : اني لن اترك الفن في إمارتي يركض وراء الرغيف ... وعلى هذا ابعث بحسابك الى امين الصندوق ، وليدفع لك ثمن الصورتين كما تشاء وكل ما تشاء .

***

وظل الامير لا يصدّق عينيه .

وتراءى له أن القدر يخدمه .

فالقدر هو الذي ألهم كونتي بحمل هذه الصورة اليه ، بينما هو يفكر ويجهد مخيلته في تصوُّر صاحبتها ، تلك التي أوشك أن يشك في أنها مخلوق أرضي ، وأنه حقيقة رآها وحدثها ... أكثير أن يؤدي ، الى من رسم هذه الصورة ، وأتاه بها ، كلّ ما يشاء ثمناً لها ؟

كلّ ما يشاء كونتي .

وماذا للوالد والوالدة لو شاءا ؟

ليطلبا ...

وودّ لو يقضي نهاره في نجواه ، وفي التأمل بالجمال الذي ملك صورته ، وبات يحلم بصاحبته بشراً سويّاً ، ينشق من اطيابها ما يحدّث عن عبق الجنة .

وأمضته حركة في الخارج .

وكاد يتوارى بالصورة من وجه القادم .

فهذا ولا شك مارينللي ، وقد جاء طوعاً لأمره ، فليته لم يبعث في استدعائه ، وقضى نهاره في غمرة السعادة التي بعثتها هذه الثورة في نفسه .

ولكن الامير لا يستطيع أن يكون ابداً لنفسه ، وعليه أن يتحمل من اعباء واقعه ، ما ليس له أن لا يتحمل ، وليته لم يكن في تلك الساعة اميراً .

ودخل مارينللي معتذراً :

ـ عفواً يا صاحب السمو ... لم أكن انتظر أمراً مبكراً ، كأمرك اليوم ، ولم اكن على استعداد للصدوع به في السرعة الواجبة .

فقال الامير في غير عتب :

ـ لقد شعرت برغبة شديدة في التنزه ، وطاب لي أن

تخرج في صحبتي ... لقد كان الصباح جميلًا فتاناً ... أما الآن فقد تأخرنا ولم تبق لي رغبة في الخروج ... أمن جديد يا مارينللي ؟

فقال بخبث ولا مبالاة مصطنعة :

– لا شيء يستحق الذكر سوى ان المركيزة أورزينا عادت امس الى المدينة .

فلم يبدُ على الامير انه سمع شيئاً جديداً ، قال :

– عرفت هذا ، وقد بعثت الي بتحية الصباح ، ولعل في رسالتها التي ترى غير التحية ، ومع ذلك فمـا أنا من الرغبة على عجل في الاطلاع عليها .. أكان لك معها حديث؟

– ألست موضع ثقتها ومعتمدها .. واذا دعيت الى مثل هذه المنزلة من سيدة سواها ، تهبها قلبك فعـلًا يا مولاي ، فـ ...

فقاطعه الامير ، قائلًا :

– لا تعد يا مارينللي .

– بلى .. كل شيء ممكن .. وما أظن أن المركيزة على خطأ تام .

– إنها لعلى خطأ .. لأن زواجي القريب منها يتطلب

قطع كل علاقة لي بسواها .

– على المركيزة اذن ، أن ترضى بما قدر لها ؛ رضاك انت ، بما كتب لك في لوحة القدر .

– أما أنا فنصيبي من قسوة القدر غير نصيبها .. لأن قلبي سيذهب ضحية لسياسة الدولة ومصالحها .. واما هي ، ففي وسعها ان تسترد قلبها متى تشاء ، وليس عليها ان تقدمه للمذبحة رغم ارادتها .

– تستَردُه .. ولِمَ تستَرده .. اسألها اذا كان الأمر حقاً لا يخرج عن كونها زوجة سافتها اليك السياسة ، وليس الحب .. ان المعشوقة لتستطيع ابداً ان تجد لنفسها مكاناً بالقرب من مثل هذه الزوجة ، لأنها لا تخشى ان تذهب ضحية لها ، بل لـ ..

– لمعشوقة جديدة .. كمّل .. أتريد ان تعتبر هـذا إجراماً مني يا مارينللي ؟

– أنا .. ارجو ألا تساويني بتلك الحمقـاء ، يا سيدي الامير ، تلك التي أتكلم بلسانها شفقة عليها ، فقد احزنتني البارحة رغبتها في عدم التحدث اليك بأمرها ، وكانت تود الابتعاد عنك وتركك في غير مبالاة ، ولكنها باسترسالها في

الحديث كشفت الغطاء عن قلبها المعذب ، فكانت تعبر عن اعمق شعورها بالاسى ، بكلمات حائرة . وقد لجأت الى الرسائل للتعبير عن شعورها كما رأيت ، واخشى ان تقضي هذه الحالة الجديدة ، على البقية الباقية من صوابها .

فقطب الامير حاجبيه ، كمن لم يرقه ما سمع من رئيس ديوانه ، وقال :

— لقد تأثرت لها اذن .. ارجو ألا تحاول اعادتي اليها يا مارينللي ، بالوسائل نفسها التي كانت سبب ابتعادي عنها، واذا كان الحب مبعثاً لجنونها ، فمما لا شك فيه انها ستجن بدون حب ، عاجلاً كان ام آجلاً .. والآن ، دعنا منها ، ولنتحدث عن شيء آخر .

وبعد سكوت قصير لم يدرِ فيه مارينللي ما هو « الشيء الآخر » الذي يريد التحدث عنه ، قال :

— اما من جديد في المدينة ؟

فتمهّل مارينللي في الجواب ، ثم قال :

— أكاد اقول لاشيء ... لأن زواج المركيز أبياني الذي سيحتفل به اليوم لا يُعدُّ شيئاً .

فقال الامير مهتماً :

ـ زواج المركيز أبياني ... ما اتاني انه يريد الزواج .. بمَن ؟

ـ لقد أحاط أمر زواجه بالكتمان ، لئلا تتناوله الالسن بما لا يودُّ ، فهو زواج عاطفي بكل ما في الكلمة من معنى ، فالفتاة التي اصطادته بشباكها ، لا لقب لها ولا مال ، ولكن لديها الكثير من الفضائل والاحساس والمرح و ...

فقاطعه الامير ، وقد تضاعف اهتمامه :

ـ تقول ... ويخيل اليك ان من يؤخذ بفتاة كالتي تصف ، دون ان يعنى بالامور الاخرى ، يستدعي أمره الشفقة ؟

ثم قال بشيء من الجدّ :

ـ إني أعرف المركيز أبياني ، فهو شاب جميل وغني ، وذو نفس تزخر بالشرف والاباء ... انك لا تحبه ولا هو يحبك ... ولكن هذا لا يغير الواقع ، وكم كنت أودّ لو اقرّبه مني ، وسأفعل .

فكظم رئيس الديوان غيظه ، وقال :

ـ هذا اذا لم يكن قد فات الاوان ، فقد سمعت ان المركيز ، يأبى أن يفتش عن سعادته في اوساط البلاط ،

وسيمضي مـــع مالكة قلبه الى املاكه في «بيومونت» ، وينصرف الى صيد الطيور على جبال الألب ... وما عساه ان يفعل أحسن من هذا ، بعد ان قضى على سمعته هنا ، وأوصد دونه ، بزواجه غير اللائق ، جميع الابواب ؟

– جميع الابواب ... أبواب المنازل التي يسودها سلطان العادات السخيفة ... ولكنك لم تقل لي من الفتـــاة التي يضحي من اجلها بكل ماذكرت ؟

– إنها تدعى آميليا كالوتي .

فأحسّ الامير كأن الارض تنهار تحته ، فغمغم :

– آميليا ... كالوتي ؟

وتابع كمن يشك في سمعه :

– لم اسمعك جيداً يا مارينللي ، فما قلت ؟

فأجاب الخبيث مشدداً في اللفظ ، كمن ابتدأ يكتشف سراً :

– آميليا كالوتي .

فصاح الامير بحنق يخالطه الحزن :

– أبداً .

– بكل تأكيد .

ـ اقول أبدا .. ليست هي .. إن هذا لا يمكن ان يكون ... لقد أخطأت الاسم ... ان اسرة كالوتي كبيرة ، وقد تكون الفتاة منها ، ولكنها ليست آميليا. آميليا نفسها .

ـ آميليا نفسها مع الاسف .

ـ إذن لا بد من وجود آميليا أخرى في الأسرة ، وقد قلت انها فتاة تدعى ... هكذا باحتقار وسخرية ... وآميليا نفسها ، لا يذكر اسمها هكذا ، إلا كل أحمق .

ففهم مارينللي شيئاً ، وأراد ان يفهم بعد ، فقال :

ـ لقد خرجت عن طورك يا مولاي الامير ، فهل لك من معرفة بهذه الـ « آميليا » ؟

فتمالك الامير قليلاً ، ثم قال :

ـ من معرفة ... أما هي آميليا كالوتي ، ابنة العقيد كالوتي ، من سابيونيتا ؟

ـ هي بالذات .

ـ تلك التي تقيم هنا في كواستالا مع أمها ؟

ـ بالذات .

ـ بالقرب من كنيسة جميع القديسين ؟

– بالذات ، بالذات ، يامولاي .

وكان الامير قد تناول الصورة المقلوبة ، فأدارها بحركة عصبية ، قائلا :

– وبكلمة واحدة ... أهذه هي الفتاة التي قلت إن المركيز سيتزوجها اليوم ؟

وقبل ان ينتظر الجواب ، تابع :

قل ... قل كلمتك اللعينة « بالذات » واغمدها خنجراً في قلبي .

فقال مارتينللي بهدوء من لؤم :

– بالذات- ...

فزمجر الامير زمجرة من اصيب في صميمه :

– جلاّد ... هي اذن ... آميليا كالوتي ... وستصبح اليوم ...

– المركيزة أبياني .

وكان مارينللي قد تناول الصورة وتأملها ، دون أن يبدو على وجهه شيء من دلائل الاعجاب ، فاختطفها الامير من يده بحدة ، وأعادها الى مكانها ، والخبيث يتابع :

وستجري حفلة الزواج بهدوء ، في قرية والدها الوادعة

سابيونيتا ، وستمضي الى هناك مـــع والدتها والمركيز وبعض الاصدقاء ، عند الظهيرة .

ولم يقوَ الامير على السماع الى النهاية ، فارتمى على احد المقاعد ، قائلاً :

ـ قضي الامر

فقال مارينللي ، وكأنه لم يفهم بعد شيئاً :

ـ ولكن ... أي شأن لك والفتاة يا مولاي ؟

فوثب الأمير كمن يريد تحطيمه صائحاً :

ـ يا خائن ... أي شأن لي وإياها ... إني اعبدها ... وكان عليكم ان تعرفوا ذلك ، ، انتم الذين حملتموني على حب أورزينـا ، وأردتم ان تحكموا على قلبي بالموت إلى الابد .

وكان كالمجنون في نظراته وقوله :

ـ وأنت ... انت الذي أكدت لي مراراً صداقتك!.. انت الذي محضتك ودّي ، ولم أبخل عليك بكل ما أتمنى لنفسي ؛ أتلفت ... وحتى انت لا أجـــدك أمامي ... بلى ؛ ولكن لتحمل إليّ النبأ « الخنجر » الذي اغمدتـــه بكل قسوة في صميم قلبي .

فكان على مارينللي ، وهو من تعوّد مقابلة العته بالحبث ، ان يقول هادئاً :

ـ اكاد لا أجـد ما اقوله لك يامولاي ، فانت لم تترك لي مجالاً للتعبير حتى عن دهشتي ... انك تعبد آميليا كالوتي ... وقسماً إني لم اعلم من قبل شيئاً عن هذه العبادة .

فهدأ الامير من روعه ، وقال :

ـ سماحاً يامارينللي ... سماحاً ... وأرجو ان ترثي لحالي .

وارتمى على صدره يغالب انفعاله .

ولم يكن مارينللي ، يجهل اميره ، وما تنطوي نفس هذا الامير عليه ، من عواطف متقلبـة ضارية ، وهو ما قرّبه ، إلا لانه عرف في كثـير من الاوقات كيف يرضيـه ، فعليه الآن ، ان يغتنم الفرصة للاستزادة من رضاه ، قال :

ـ لقد أخطأت يا مولاي بكتمانك سرّك عني ، أنا الذي اتفانى في خدمتك والتفريج عنك ، فكأني بك لا تثق بعد بصداقتي ووفائي ... وإلا ، فما معنى ان تحمل حبك المكبوت في صدرك الى اليوم ، وحين ترى هـذا الحب مهدداً

تفاجئني ، بمثل هذه الحالة المؤلمة من الانفعال ؛ بهذا السر ؟

ـ صدقت يا مارينللي ... ولكن كيف تريد مني ان ابوح لك بما لم اكن اجرؤ على البوح به لنفسي ؟

ـ ومع ذلك فقد بحت به لمن كانت علة آلامك هذه ؟

ـ لا .. لقد حاولت الاتصال بها مرة ثانية ولم أفلح في ذلك .

ـ مرة ثانية .. والاولى ؟

ـ مرة واحدة ... وتحدثت اليها ... ولا ترهقني بعد باسئلتك ، فما انا في حالة اقوى معها على كثرة الاجوبة ، واذا كانت لديك من حيلة لانقاذي مما انا فيه فهات .

ـ لانقاذك .. لا حيلة .. فما لم تعترف به لآميليا كالوني ، يجب ان تعترف به للمركيزة ابياني ، وما لا يستطيع المرء ان يشتريه جديداً ، يشتريه قديماً ... وليس هذا بالشيء النادر الوقوع يا مولاي !

ـ تكلم بجد يا مارينللي ، بكل جد ، وإلا ...

ـ تزداد الامور سوءاً .

ـ لقد اصبحت قليل الحياء .

ـ وعلى هذا يجب ان نفكر في امر آخر .

ـ نعم يا مارينللي ... يا مارينللي الوفيّ ... اما من سبيل لانقاذي ؟

ـ لقد تعودت ان تقدّر مواهبي يا مولاي ، ويعزّ عليّ ان افقد ثقتك بي وتقديرك ، ولذلك ...

فقاطعه الامير كمن لايطيق بعد ثرثرته :

ـ ان الوقت لثمين ، وانت تضيعه سدى ... ألديك الحل للمشكلة اليوم ؟

ـ اليوم ... إن ما مرّ ، وحده لا يحلّ .

وبعد تفكير قصير ، تابع :

ـ اتطلق يدي في العمل يا مولاي ؟

ـ إطلاقاً .

ـ لا تضع الوقت اذن ... عليك ان تمضي في الحال الى قصرك الريفي في دوزالو ، فالطريق الى سابيونيتا تمرّ به ، واذا لم افلح في ابعاد المركيز ، فمن المؤكد انه لن يفلت من الفخ الذي سأنصبه له .

وكان يرسم خطه جهنمية في مخيلته ، ولا خوف من الامير الذي اطلق يده في تنفيذها ... فتابع والامير يصغي اليه ، ويبدو كأنما هو على اتم الاستعداد لتنفيذ كل

ما يأمر به :

ـ يجب ان تبعث رسولاً الى امير ماسّا من اجـــل زواجك ، وعلى المركيز ابياني ان يكون هذا الرسول ، وان يسافر في الحال ... اتفهمني يا مولاي ؟

فبرقت اسرّة الامير ، وقال :

كل الفهم ... ليتبعني المركيز الى دوزالو ، فأنا ماض اليها الساعة .

***

خرج مارينللي وبقي الامير وحده ، واراد ان يلقي بآخر نظرة الى الصورة ، فاذا بهـا على الارض ... على الارض ... لقـد اساء الى صاحبتها والى نفسه ، في آن واحد ، وكمن يلتقط صورة قديسة التقطها ، ونظر اليهـا نظرة واحدة ، خرجت من اعماقه ، ثم وضعها على المكتب ، قائلا :

ـ يجب ان لا اضيع الوقت بالنظر اليها ، ولن يزيدني هذا الا تألماً ، وقد تألمت الى الآن اكثر مما في وسعي ان احتمل.

وفكر فيما عسى ان تكون خطة مارينللي .

انه يثق بهذا الرجل ، وقد عوّده الاخلاص في كل عمل يقوم به لخدمته ، فهل يوفق اليوم الى انقاذه مما هو فيه ؟

وفكر ملياً .. وخيل اليه ان الاعـــتماد على مارينللي وحده ، قد لا يؤدي الى شيء ، إن هو لم يسعفه ببادرة طيبة ، فأية بادرة يمكنه القيام بها لذلك ؟

وتذكر شيئاً برقت له اسرته .. ففي مثل هذه الساعة تخرج آميليـــا كل يوم الى الكنيسة ، الى كنيسة الآباء الدومينيكانيين ، للصلاة ... أفليس من الدهاء ان يلحق بها الى هناك ويحدثها ؟

ولكن اليوم يوم عرسها ، وعندها من الاعمال مـــا يشغلها عن الخروج .. ومع ذلك فـلا بأس في التجربة ، والكنيسة في طريقه الى دوزالو ، وبضع دقائق فيهـــا لا تقدم ولا تؤخر ، ولعل التوفيق يكون حليفه ، ويمهد لرئيس ديوانه سبيل النجاح في خطته .

وقرع الجرس لحاجبه ، وراح يجمع الاوراق المبعثرة على مكتبه بانفعال ، حتى اذا دخل الحاجب قال له :

ـ الىّ بالمركبة في الحال ... أليس هنا احـــد من المستشارين بعد ؟

ـ فقال الحاجب :

ـ السيد كاميللو روتا .

ـ ليدخل .

وقلب اوراقه بسرعة ، كمن يبحث فيها عن شيء ، ولما دخل المستشار بادره بقوله :

ـ لا وقت عندي فاضيعه ... ما انجزت كثيراً من الاعمال اليوم ... لك ان تنظر في هذه الاوراق وتتصرف بحكمتك ، وليس لي ان اوصيك بسوى هذه .

وناوله رسالة آميليا برونيشي متابعاً .

ـ لقد وافقت على ماورد في هذه الرسالة .

وكان المستشار ينظر اليه مستغرباً حركاته ولهجته ، ولحظ الامير تردّده في الانصراف ، فقال له :

ـ ألديك ما يتطلب التوقيع ؟

فقال المستشار بشيء من الرهبة :

ـ مرسوم بالاعدام .

ـ آه بكل سرور ، فهاته .

بكل سرور ... لعل الامير لم يسمع ، ولم يدرك أي مرسوم يعني ، فقال المستشار بلهجة مريرة :

ـ قلت ... مرسوم بالاعدام يا مولاي .

فنظر الامير نظرة فيها كل الجد ، وقال :

ـ وانا قلت هاته .

فكاد المستشار يبدي امتعاضه ، الا انه تغلب على ما في نفسه ، وتظاهر بالتفتيش عن المرسوم بين اوراقه ، ثم قال :

ـ عفواً يا مولاي ... لقد نسيت احضاره ، فلا بأس في تأجيله الى غد .

فهزّ الامير كتفيه هزّة لامبالاة ، وقال :

ـ لا بأس ... اليك بما هنا من اوراق ، وانا ماض في الحال .

واسرع في الخروج .

فوقف المستشار يشيّعه بنظرة يمتزج فيها الاحتقار بالالم ، وقال :

ـ بكل سرور .. مرسوم بالاعدام .. بكل سرور ؟!! كلمة بشعة ينقبض لها الصدر ، في موقف اقلّ من هذا الموقف حراجة وهولاً ، فكيف والتوقيع الذي اطلب يُقرّ حكم الموت على انسان ، مهما يكن الجرم الذي

ارتكبه واستحق الموت لاجـــله ، لم يخرج عن كونه انساناً سنحرمه الحياة ؛ والانسانية نفسها ، تقضي بأن نأسف لمصيره .

وخرج بالاوراق وهو يردد :

ـ بكل سرور ... بكل سرور ...

- ٢ -

كانت كلاوديا كالوتي سعيـــدة في ذلك اليوم ، تطل سعادتها من عينيها كلما نظرت الى ابنتها آميليا ، ورأتها تستعد لساعات عرسها القريبة ، بكل ما يزخر به صدرها من حيوية الفتوة ؛ وتتدفق السعادة مع الدم في عروقها ، حين تفكر بالزوج المثالي الذي بعثته العناية لهـــذه الابنة المحبوبة .

ولم تكن تشك في ان فرح زوجها العقيد كالوتي ، هذا الذي عرف بشدة تمسكه بالتقاليد الشريفة ، يعدل الآن فرحها ... فهو لم يكن يحسب ان فتى كالمركيز ابياني ، سيصبح في يوم من الايام صهره ، لا لأن ابنته لا تستأهل ان تكون زوجاً لهذا الفتى ، بل لان الفتيـان الاشراف في كواستالا ، لم يتعودوا الخروج عن عاداتهم القاضيه بأن لا يتزوجوا الا من بنات طبقتهم .

والمركيز ابياني كان شريفاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى . ولولا هذا ، لما رضي والد آميليا بأن يصبح زوجاً لابنته ، مهما يكن مقامه رفيعاً ، وكثيراً ما كان يقول :

« أن ابعث ابنتي الى الدير ، بل الى القبر ، قبل ان أراها متمرغة في حمأة الفساد التي يتمرغ بها ابناء تلك الطبقة المدعوة بطبقة النبلاء ، أحب الى نفسي » .

ولم تكن كلاوديا بانتظار زوجهـــا في ذلك اليوم ، فالاتفاق كان ان تمضي والعروسين في الظهيرة اليـه ، وفي سابيونيتا تجري مراسيم الزواج في جو عائـــلي ، وينتهي الأمر ... وما اشد ما كانت دهشتها ، عندما سمعت وقع حوافر جواد في ساحة المنزل ، ورأت زوجها مقبلاً بنشاط الفتوة ، فهرعت الى استقباله هاتفة :

ـ ادواردو !

فعانقها قائلاً :

ـ عمي صباحاً يا حبيبتي . لقد فاجأتك . اليس كذلك؟

قالت : مفاجأة سارة ، إن لم يكن ثمة سواها .

قال : لا شيء سواها .

وتابع يشرح سبب مجيئه :

ـ لقد ايقظتني سعادة هذا اليوم باكراً ، ورايت الصباح جميلاً ، والطريق قصيرة ، فاذا بي عندكم .

وتلفتت الى ما حواليه كمن يفتش عن احد . اما هو فتابع يقول :

ـ ما ارى آميليا ، فأين هي ؟

فابتسمت الام السعيدة ، قائلة :

ـ لقد ذهبت للصلاة كعادتها .

ـ للصلاة ... وحدها ؟

ـ الكنيسة قريبة ، ولم تشأ ان تستقبل حياتها الجديدة، إلا برضى الله .

ـ هذا حسن ... ولكن الطريق الى الكنيسة على قصرها لا تخلو من اخطار .

ـ انك تغالي ... واراك تعباً ، فهيا نتناول معاً بعض المنعشات .

وكأن ذهاب اميليا الى الكنيسة وحدها كان يقلقه ، فقال :

ـ كان يجب ان لا تدعيها تخرج وحدها .

قالت وهي تجذبه الى الداخل :

ـ لا عليها ... هيا.

وقالت للخادم الذي كان قد هرع بدوره لاستقبال سيده :

ـ ابق هنا يا بيرو ، واعتذر لكل من يأتي اليوم

لزيارتنا ، فلا وقت لدينا لاستقبال احد .

* * *

ما كاد الزوجان يدخلان الى المنزل ، ويبقى بييرو وحده عند الباب ، حتى بدا له رجل يخفي وجهه بقبعته وقبة معطفه ، وهو يتقدم بحذر منه ، فقال في نفسه :

ـ من يكون القادم الغريب هذا ؟

وكان الرجل قد اصبح قريباً منه ، فتطلع ذات اليمين وذات اليسار حذراً ، ثم انزل قبة معطفه وظهر وجهه ، فهتف بييرو بدهشة وقلق :

ـ آنجلو ... انت ؟

فرفع الرجل سبابته الى فمه ، قائلاً :

ـ صه ... لقد طوفت حول المنزل كثيراً لألتقيك واقول لك كلمة واحدة .

فقال بييرو والقلق مستحوذ عليه :

ـ ولكن ... كيف تجرؤ على الظهور ، بعد ان هُدِر دمك ، منذ جنايتك الاخيرة ... اما تدري بأن مكافأة وضعت لمن يأتي بك حياً ام ميتاً ؟

فابتسم الشقي بخبث ، وقال :

ـ اتطمع بهذه المكافأة ؟

فلم يتمالك بييرو من اظهار تبرمه ، قال :

ـ ارجوك .. لا تكن سبباً لتعاستي .. ماذا تريد ؟

ـ فاخرج آنجلو كيساً مملوءاً بالنقود من جيبه ، وقال :

ـ لقد اتيتك بهذا .. انه لك .. انسيت سيدك الالماني..

فقاطعه بييرو وقد امتقع وجهه :

ـ اسكت .

ـ سيدك السابق .. الذي قدته الينا على طريق بيزا ؟

ـ اسكت قلت لك .

ـ لقد تلطف وترك لنا خاتماً ثميناً ، وهذا نصف ثمنه، حقك .. اما تأخذه ؟

ـ لا .

فتظاهر آنجلو باعادة الكيس الى جيبه قائلاً :

ـ كما تشاء .

ولكن بييرو لم يقوَ على ابعاد شيطان الطمع كثيراً ، فقال :

ـ طيب .. لا بأس .. هات .

وبعد ان بات الكيس في يده ، تابع :

ـ والان ماذا تريد .. اتكون قد أتيت لمجرد القيام بهذه البادرة الطيبة ؟

فقال آنجلو متكلفاً لهجة الجدّ :

ـ أتشك .. مع انك تعرفنا جيداً . فنحن ما تعودنا إلا الانصاف ، وسوانا ممن ينعتون انفسهم بالامناء يضمون الحق .

وهمّ بالمضيّ ، قائلا :

ـ الى الملتقى .

ولكنه عاد ثانية ، وقال لبييرو :

ـ سؤال بعد ... لقد علمت ان العجوز كالوتي قد عاد الى المدينة ، فما دعاه الى هذا ؟

فقال بييرو :

ـ لا شيء .. لقد جاء متنزهاً ، وستكمل ابنته اليوم على المركيز ابياني ، في سابيونيتا حيث يقيم ، وهو يود استعجال الأمر .

ـ وسيرجع بعد قليل ؟

فتطلع بييرو الى ما حواليه قلقاً ، وقال :

ـ انك تطيل البقاء ، وقد يراك هنـــا ... أتفكر

بالاعتداء عليه ؟

وتابع بلهجة المحذّر :

ـ لا تنس من هو .

فقال آنجلو :

ـ لا انسى ، وانا ممن عملوا تحت لوائه ، ولو ان من وراء الاعتداء عليه فائدة لـ ... ولكن ، حتى يلحق به العروسان ؟

ـ في الظهيرة

ـ وسيرافقهما جمع كبير طبعاً ؟

ـ كلا ، فقد تقرر ان يقتصر الموكب على الام والابنة والمركيز ، وسيحضر الاكليل بعض الاصدقاء من سابيونيتا كشهود فقط .

ففكر آنجلو قليلاً ، ثم قال :

ـ ومَن من الخدم سيرافقهم من هنا ؟

ـ انا واثنان اخران .

ـ انت ؟

ـ سأتقدم المركبة بجوادي .

ـ هذا حسن .. وفي مركبة من سيمضون ، مركبتكم

ام مركبة المركيز ؟

ـ مركبة المركيز .

ـ هذا سيء ... اذن سيكون هناك فارس اخر ، وحوذيّ قويّ الساعد .

فلم يتمالك بيير عندئذ من اظهار دهشته ، قال :

ـ لقد اجبت حتى الان على اسئلتك الكثيرة ، فبقي ان تقول لي : ما وراء هذه الاسئلة ؟

ولما لم يجبه الشقي بسوى ابتسامة خبيثة ، قال :

ـ ان الحلى التي ستتزين بها العروس لا تستحق المغامرة التي تفكر في الاقدام عليها .

فقال اللعين بلهجة من تعوّد الاقدام على المغامرات :

ـ ولكن العروس تستحقها .

فهتف بيير ، وقد فهم قصده :

ـ العروس ... وتريد ان اكون شريكك في جريمتك ؟

فضحك آنجلو بلؤم ، وقال :

ـ كلا ... لقد قلت انك ستكون فارس المقدمة ، فكل ما ارجو منك ان تستمر في سيرك ، وان لا تلتفت الى الوراء ، مهما يحدث في الطريق .

وهال الخادم ما سمع ، فقال بشيء من الحزم :

ـ لا يمكن ابداً .

ـ لا يمكن .. ابداً .. تريد اذن ان تمثـــل دور صاحب الضمير ؟

وتابع الشقي بلهجة ملؤها التهديد :

ـ اظن انك تعرفني معرفة كافية .. فاذا ما تكلمت ، او وقفت موقفاً واحداً ، غير الذي وصفت ..

فقاطعه بييرو راجياً :

ـ ولكن يا آنجلو ..

ولكن آنجلو ابى الاصغاء الى رجائه ، فقال واضعاً حداً للجدل :

ـ اصنع ما بدالك ، وحذار ان التقيك .

ومضى لا يلوي عليـــه ، وكان بييرو يرتجف قهراً وخوفاً ، فقال في نفسه :

ـ يا له من شقي مجرم .

وفكر اولاً في إطلاع سيّده على امره ، ولكن ... كيف يفعل ... كيف يفضحه ، وقد كان هو نفسه من شركائه في جرائمه ؟

لقد ساق اليه في الامس سيده الالماني ، وهذا الكيس الذي « لم يرفضه » ثمن خيانته ، والعدالة تطارد الشقي ، بعد ان هدرت دمه ، افلا يكون بتسليمه للعدالة كالباحث عن حتفه بظلفه ؟

مشكلة والله ..

***

استراح ادواردو ، وتنـــاول شيئاً من المنعشات مع امرأته ، وآميليا لم تعد بعد من الكنيسة ، فقال :

ـ لقد تأخرت .

وهم بالعود من حيث اتى ، فقالت له كلاوديا :

ـ برهة اخرى يا ادواردو .. اما ترى انها ستتألم لمجيئك ورواحك دون ان تراك ؟

قال : عليّ ان اعرّج على المركيز في طريقي ، فأنا أكاد لا اقوى على انتظار الساعة التي سيصبح فيها هذا الفتى النبيل المثالي ، صهري .

ثم تابع معجباً :

ـ كل شيء فيه يحملني على الاعجاب به ، وبخاصة عزمه على هجر هذه المدينة ، والاقامة في قرية آبائه واجداده .

ـ انه مثلك يهوى العيش في القرية .

ـ ولا يخطىء .

ـ ولكن قلبي يتفطر أسى ، كلما فكرت في اننا سنفقدها ، ابنتنا الوحيدة المحبوبة .

ـ سنفقدها ... لا افهم كيف .. ألأنها ستعيش في احضان الحب ، بعيداً عن جو هذه المدينة الموبوء بالمفاسد؟

ثم قال :

ـ لا تحاولي ان تشتري سرورك بسعادتها ... ثم لا تنسي انك انت التي آثرت البقاء بها هنا ، بعيداً عن الزوج والوالد اللذين تحبان ، رغبة في ان توفري لها اسباب هذه السعادة .

وشعرت كلاوديا بعتب في لهجته ، فقالت :

ـ على رسلك يا ادواردو ... ان كرهك للمدينة وبلاطها يعود بك ابداً الى العتب .. لقد بقيت بابنتنا هنا لاسعادها ، اجل ، ولولا ذلك ، لما كان لها ان تحظى بفتى كالمركيز الذي استأثر باعجابك ، وانا لا أتألم لبعدها العاجل عني ، لأشتري سروري بسعادتها ، وإنما اتألم لان عاطفة الام هي التي تفرض عليّ ذلك .

فابتسم ادواردو متلطفاً ، وقال :

ـ وعاطفة الاب تفرضه ايضاً .. وانا جد سعيد بأن تكون نتيجة بقائك هنا ، قد جاءت وفق رغبتك ، وهذا من حسن حظ ابنتنا التي لم يكن لنا من هم ، سوى إحسان تربيتها .. واما التألم لبعدها ، فهذا ما اودُ ان يتغلب عليه ، ارتياحنا الى بعدها عن هذه المدينه .

وكأن « المدينة » هذه ، كانت « جحيمه » فعادت اليه لهجته الحادة القاسية لذكرها ، وتابع :

ـ وما يدعو المركيز بعدُ الى البقاء هنا .. أليحني رأسه في كل ساعة متذللاً ، ويزحف على ركبتيه ارضاء لمارينللي ، ام لينال شرفاً ليس بالنسبة اليه ، شيئاً من الشرف ؟

وكان قد وقف يهمّ بالمضي ، فنادى خادمه ، وقال له :

ـ اسبقني بالجواد الى منزل المركيز ، وانا لاحق بك اليه .

وعاد الى حديثه ، متابعاً :

ـ لِمَ يبقى المركيز هنا .. لِمَ يبقى ما دام يستطيع ان يكون هناك آمراً مطاعاً ، لا مأموراً مطيعاً .. ثم ألا تخشين يا كلاوديا ، ان يكون زواجه من ابنتنا ، مدعاة لتوتر العلاقات بينه وبين الامير ، بالنظر الى الكره الذي يكنه

الامير لي ؟

ـ لا ، ليس الى الحد الذي تخشى .

ـ انا لا اخشى شيئاً .

ـ اقول هذا .. اما سبق واعلمتك بان الامير التقى ابنتنا ؟

فهتف ادواردو بدهشة يخالطها الذعر :

ـ الامير .. التقى ابنتنا .. متى ، واين ؟

ـ في الطريق ، يوم الاحتفال بالعيد الاخير ، وكان جدّ لطيف في تحدثه اليها .

ـ جد لطيف .. في تحدثه اليها ؟

ـ اجل ، وكان يبدو وكأنه قد فتن بنشاطها ومرحها .

ـ فتن .. بنشاطها ومرحها ؟

ـ ولم يدع كلمة ثناء الا اسبغها على جمالها .

فصاح ادواردو غضباً :

ـ كفى .. اتروين لي هذا كله ، وانت مرتاحة يا كلاوديا اليه ؟

وصرف باسنانه متابعاً :

ـ يا لك من ام ساذجة ؟

ـ فقالت متأثرة :

ـ وفيمَ ذلك يا ادواردو ؟

فهز رأسه هزّة اسف وغم ، وقال :

ـ حسن ... وهذا ايضاً مما انقضى ومرّ .. لقد كان يجب ان يشك هذا السهم ايضاً في صدري .. خليع فاسق يثني على جمال ابنتنا .. كلاوديا .. ان مجرّد التفكير في هذا ، يثيرني .. لقد كان عليك ان تخبريني بـه في حينه . انـــني لا اؤاخذك على هذه الهفوة اليوم ، وقد اعود الى محاسبتك عليها .

وخرج متألماً ، بعد ان قال لها :

ـ الى اللقاء .. اتمنى وصولكم الي بالسلامة .

***

لم تكن كلاوديا تجهل زوجها ، هـــذا الرجل الطيب القلب ، والذي كان لطيبته يكره كل ما ليس فضيلة ، ويرى في المجتمع الذي ابتعد عنه بؤرة فساد ، ويفـــاخر انـــه قد عرف هـــذا المجتمع ، ووجد السبيل السويّ الى العيش بعيداً منه .

وكما وجد هو هذا السبيل ، يعتقد ان في استطاعـة كل

من ينهج نهج الفضيلة مثله ، ان يبحث عنه ؛ وان يجده .

وما سعادته اليوم بالمركيز ، الذي سيصبح عما قليل صهره ، إلا لأن هذا الصهر الكريم ، سيهجر مثله المدينة وبلاطها ، ويروح الى الريف الهادىء الوادع الذي هو في نظره ، ملجأ الفضيلة ووطنها الأول .

لعله مخطيء ، ولكن كلاوديا ترى – بينها وبين نفسها – انه غير مخطيء ، في نظره الى الامير .. فهـذا الشاب الخليع يثير – حتى بابتسامته ، لأية امرأة – الشكوك .. وهي لا تجهله .. ولكن الفينة التي تحدث فيها ، الى ابنتها ، لم تكن في شيء ، من اويقات العبث والمجون ، وقـد كانت هي حاضرة وشاهدة ، فلا مجال اذن للغضب الذي اثارته روايتها البريئة ، في نفس زوجها ، هـذا الزوج المحبوب .. يا ويلها من فضيلته وعفته وطيبة قلبه .

وكانت بدأت تقلق لتغيب آميليا .

وكادت تخاوف زوجها تنتقل اليها ، عندما أقبلت الفتاة الهادئة الرصينة ، وقد اخذتها رجفة من القلق والاضطراب ، واندفعت نحوها ، قائلة :

– الحمدلله .. لقد وصلت . اتراه يلحق بي الى هنا ؟

وراع الوالدة اضطرابها ، فقالت :

ـ مَن .. مَن ذا الذي يلحق بك ؟

ولما لم تجبها ، تابعت بقلق :

ـ ما بالك تنظرين الى ما حواليك خائفة مضطربة ؟

فقالت الفتاة ، والدموع في عينيها :

ـ رباه ... أكان عليَّ ان امضي الى بيت الله لأسمعه .. لأنصرف عن مناجاة ربي ، الى التفكير في وقاحته وصفاقة وجهه ؟

وارتمت على صدر امها باكية :

ـ يا للخطيئة .. في الكنيسة .. امام بيت القربان .. أسمع احد بمن ارتكب هذه الخطيئة الكبرى مثله ؟

وكان الجزع قد بلغ اشده في نفس الام ، فقالت :

ـ وبعد يا آميليـــا .. من الذي تجرأ على ارتكاب الخطايا في بيت الله ؟

فهدأت الفتاة من روعها قليلاً ، وقالت :

ـ كان يجب ان تكون صلاتي اليوم اعمق منها في اي يوم اخر ، ولكنها وأسفاه كانت اقـــل حرارة بكثير مما يجب .

- ليس في قدرة الانسان يا ابنتي ان يصلي ابداً كما يريد ، وكما ينبغي ان تكون صلاته ، ومع ذلك فالنية الصادقة المجردة ، تكفي لترفع الصلاة الى الله .

- ولكن من اراد الخطيئة فقد اخطأ .

- هذا صحيح .. وفي يقيني ان ابنتي آميليا لم ترد الخطيئة ابداً .

- لا ، يا اماه .. لقد وقاني الله شر هذه العثرة .

- هدئي روعك اذن ، وقصي علي قصتك .

وفكرت الفتاة لحظة ثم قالت :

- ما كدت اصل يا امي الى الكنيسة ، واركع امام المذبح ، وقد هيأت افكاري للارتفاع بها الى الله ، حتى شعرت بوجود امرىء يركع خلفي مباشرة ، وعلى مسافة قريبة جداً مني .. ولم يكن لي ان اتحرك ، وان ابتعد من مكاني ، لئلا أثير الشكوك حولي ، واصرف افكار الاخرين عن الصلاة .. وما هي الا لحظة ، حتى طرق مسمعي همسٌ ، واسمٌ ليس لأحد القديسين ، ولكنه كان .. عفواً يا اماه .. اسمي .. اسم ابنتك .

وانفجرت بالبكاء متابعة :

ـ ألا ليت السماء صعقتني قبل ان اسمع هذا الاسم ، وقبل ان اعرف صاحب الشفتين اللتين همسته .. لقد كان الشقي يتكلم ويتنهد .. كان يصف الجمال ويشكو الهوى .. كان يتألم زافراً : « إن هذا اليوم الذي ستتم فيه سعادتي هو اليوم الذي سيكتب له الشقاء فيه الى الابد » ... وتمادى في شكوى هواه .. وكان عليّ ان اصغي مكرهة اليه .. وكم تمنيت لو أُصبت في تلك اللحظة بالصمم الابدي، وارتفعت بالصلاة الى الله من اجل ذلك ، وكانت الصلاة تصعد من عمق اعماقي ، ولكن .. لحكمة ما ، لم يستجب الله الي .. وكان لا بدّ لي في الاخر من العودة ، فوقفت أهمُّ بالانصراف ، وانا ارتعش خوفـــاً من رؤية الشقي ، ذاك الذي انتهك حرمة بيت الله ، واراد ان يجعـل من هذا البيت مباءة لعبثه ومجونه ، واذا بي وجهـــاً لوجه أمامه .

وأطلقت من صدرها الزفرات ، فهتفت الام والجزع مستولٍ عليها :

ـ ومن كان ؟

ـ آه .. احزري يا امي .. لقد كان هو ، هو نفسه .

– هو من ؟

– الامير ..

الأمير .. الامير .. لقد صدقت ظنون ادواردو ، وكاد يكون نبياً بمخاوفه .. فما الذي يريده ذلك الامير الخليع الشقي ، من ابنتها العفيفة الطاهرة ؟

وكاد يجن جنونها .

ولكنها تمالكت ، وقالت لها متلطفة :

– خففي عنك يا ابنتي .. واحمدي الله على ان أباك لم ينتظر رجوعك .

فقالت الفتاة مستغربة :

– وهل كان ابي هنا ؟

– اجل .. وكان يودّ ان يراك ، وحين استبطأك عاد ادراجه ، فالحمدلله على انه لم يسمع قصتك .

– وهل أتيت يا امي ما يستوجب غضبه ؟

– كلا ، يا ابنتي .. ولكنك لا تجهلين طبعه ، فهو يبني من الحبة قبة ، حين يكون ثمة ما يتعلق بالشرف ، وقد يحمله الغضب على ما لا تحمد عقباه . . وبعد ... ماذا جرى ؟

ـ لقد فوجئت يا امي ، فخانتني شجاعتي ، ولم اقو حتى على النظر اليه ، فلذت بالهرب .

ـ ولحق بك ؟

ـ لم اشعر بذلك اولاً ، حتى أحسست يداً تمسك بي ، وكانت يده .. ولم يكن في وسعي المقاومة ، ولا الاستمرار في السير ، فتوقفت .. واخذني دوار .. فما عرفت ما قال لي وبما اجبته .. ولا عرفت كيف أفلتُ في الآخر منه ، ولا كيف وصلت الى هنا ، وانا اتساءل الى الان عما اذا كان لا يزال يجدُ في اثري .

فكتمت الام قلقها ، وقالت :

ـ لقد كان وهماً تصورك ، اكثر منه حقيقة .. ويا لمنظرك عندما دخلت عليَّ .. وإني لأحمد الله مرة ثانية ، على ان أباك لم يكن هنا ساعة دخولك .. وعلى كلٍّ اعتبري هذا الحادث كأنه لم يكن .

ـ ولكن المركيز .. اما يجب ان يعرف هو الاخر؟

ـ لا داعٍ لذلك .. لا تزعجيه لأمر تافه كهذا .. إن السمَّ الذي لا يقتل حالاً ، لا يبطل ان يكون سماً ، له خطره في المستقبل ، والشيء الذي لا يسيء الى العشيق ، وقد

يجد هذا لذة في الاطلاع عليه ، لذة التفضيل له على منافس ، يسيء دون شك الى الزوج .. على ان العشيق نفسه ، اذا هو خشي تغلب آخر عليه ، قد ينقلب الى وحش خطر .

– سلمت لي يا اماه ، وانت تعلمين مدى حرصي على الاستفادة من تجاربك ونصحك ، ولكن .. ما عسى ان يكون من امر المركيز ، فيما لو سمع الخبر من الغير ؟

– قد يسمع الخبر ، وقد لا يسمعه .. أليس الخير في افتراض السلب ، والتوقف عند هذا الحد ؟"

– اذا كانت هذه ارادتك فلا بأس .

وكانت آميليا قد استعادت هدوءها ، فتابعت قائلة :

– لقد كنت جبانة .. اما كان علي ان اسلك غير هذا السلوك ، وان لا اتسامح بشيء ؟

فقالت الام مؤيدة :

– هذا ما كان يجب ان تعملي .. ان الامير رجل اجتماعي ، «رجل صالونات» ولا يرى بأساً في ما وجّه اليك من حديث ، وانت لم تتعوّدي سماع الاحاديث الاجتماعية الجوفاء ، فهي في الغالب تافهة ، ولا تعني بمجموعها شيئاً .

– شكراً لك يا أمي .. لقد جلوت الهم والخوف عني ،

وأرى الان رأيك في الكتمان ، فقد يسيء المركيز الظن بي ، ان انا اطلعته على ما جرى ، وربما نسب الامر الى الغرور ، اكثر منه الى الفضيلة .

وقبل ان تتم جملتها ، طرق آذانها وقع اقدام ، فقالت وقد عاودتها الطمأنينه :

ـ هذا وقع خطواته .

ولم يكن القادم في الواقع سوى المركيز نفسه .

***

لقد كان المركيز ابياني كما وصفناه من قبل ، من طبقة النبلاء المحافظين على تقاليدهم ، والناظر اليه لا يشك في انه لا يتصنع النبل ، فالنبل كل النبل ، كان في طلعته ونظراته وحركاته وحديثه .

دخل مطرقاً ، فاعترضته آميليا قائلة :

ـ كنت اتوقع قدومك ، ولكن .. ليس بمثل هذا التجهم والعبوس ، فكأني بهذا اليوم لا يستحق منك القليل من البهجة والمرح .

فتكلف المركيز الابتسام قائلا :

ـ بل انه يستحق اكثر مما تستحق حياتي كلها ..

وقد تكون السعادة التي أحسُّها هي نفسها السبب في ما تسمينه تجهما وعبوساً .

ولحظ وجود الام ، فانحنى لها معتذراً :

ـ عفواً يا سيدتي .. وكل احترامي بعدُ لمن سيكون لي قريباً شرف التحدث اليها ، بما هو اكثر دلالة على الودّ والقربى .

فقالت كلاوديا ووجهها يطفح بالبشر :

ـ ان ما تعدُّه شرفاً لك هو في الواقع فخر لنا .

وغمرت آميليا بنظرة تطفح بالحنو ، وتابعت :

ـ ما اسعدك يا ابنتي .. امـــا كان يجب ان يبقى والدك ويشاركنا غبطتنا وسعادتنا ؟

فقال المركيز :

ـ لقد مرّ بي منذ برهة وتعانقنا ... فيا له من رجل يا آميليا . انه مثال حي لفضائل الرجولة الكاملة . ان تفكيري وعملي لا يمكن ان يسموا الى القدر الذي سما اليه . أأستحق ان اصبح ولداً له ـ وانا دونه رفعة نفس ـ وبالتالي زوجاً لك ايتها العزيزة ؟

فكتمت الفتاة اغتباطها بما سمعت ، وقالت :

– كنت اودُّ لو انه انتظر عودتي .

– لم يشأ ان يزعجك بزيارته الخاطفة .

فقالت الام :

– كان يتوقع ان يراك منهمكة بالتزين .. وارى ان الوقت يمرُّ سراعاً ، والى الآن لم نعمل شيئاً ، فهيّـا يا آميليا .

وفهم المركيز ما تعني ، فقال :

– لا داعي يا سيدتي ..

فقاطعته قائلة :

– أتريد انْ تمضي بها الى الهيكل هكذا ، دون اية زينة ؟

فابتسم الفتى النبيل العاطفة ، وقال :

– من ذا الذي ينظر الى آميليا ، ويؤثر ان يراها متزينة ، على رؤيتها هكذا بخلقتها الطبيعية ؟

فتدخلت آميليا قائلة :

– لا يا مركيزي العزيز .. سأتزين ، ولكن بمقدار ، وفي اقل من بضع دقائق ، ولا شيء من الحلى هدية نبلك وحبك ، فهذه كلها كلا شيء لو لم تكن منك ، وقـد

رايتها ثلاث مرات في الحلم .

– آه ... لم تخبريني بهذا من قبل .

– رأيت ، وقد تحليت بها ، ان كل حجر فيها قد تحول الى لؤلؤة ... اصحيح يا اماه ، ان اللآلىء في الاحلام تفسر بالدموع ؟

فقالت الام مطمئنة :

– يا لك من طفلة .. ان تفسير الحلم ، وهم كالحلم نفسه. الم تفضلي اللآلىء على الاحجار الكريمة ؟

– طبعاً .

وكان المركيز قد عاد الى اطراقه وتفكيره ، فردّد قول الفتاة :

– تفسر بالدموع .. تفسر بالدموع ..

فقالت آميليا قلقة :

– اتعتقد انت ذلك ؟

– اجل .. واني لأخجل بهذا الاعتقاد ، ولكن ما حيلة المرء في مخيلته ، حين تتجه بقوة نحو عرض الصور المخزنة؟

– ولِمَ تتجه هذا الاتجاه ؟

وارادت ان تغير مجرى الحديث ، فقالت متدللة :

ـ اسمع .. اتذكر ماذا كنت ارتدي ، وفي اي حال كنت ، عندما رأيتني واعجبت بي اول مرة ؟

قال وقد سرّي عنه قليلًا :

ـ اذكر .. بل اني اراك ابداً ، وما اودّ ان أراك مرة ، إلا كما رأيتك في تلك المرة .

ـ اذن .. ثوب من اللون نفسه ، ومن الخياطة نفسها ، فضفاض طليق .

ـ ممتاز .

ـ وشعري ؟

ـ بلمعانه الاسود العميق ، وبالتجعدات التي اسبغتها الطبيعة عليه ، وكفى .

ـ لا تنسَ الوردة التي كانت تزينه .. تماماً .. قليلًا واعود اليك .

* * *

ما انصرفت الفتاة بزهوها ، حتى عاودت الكآبة المركيز ، فقال :

ـ اللآلىء تفسَّر بالدموع .. اما للدقيقة ان لا تستحيل الى سنة في نفوسنا ؟

وكانت كلاوديا تراقبه باهتمام ، فقالت :

ـ لقد كانت ملاحظات آميليا صحيحة بقدر ما كانت سريعة ، فأنت اليوم اكثر تجهما منك في اي يوم آخر ، في حين انك امام خطوة واحدة من تحقيق أمنيتك ... أأنت نادم على ما فعلت ؟

فتأوه الفتى النبيل قائلاً :

ـ آه ، يا امي .. لا يخامرك الشك فيّ .. إني مكتئب ، اجل ، ولكن هذا لا يعني الندم ، بل هو نتيجة لاحساس في نفسي غريب .. فأنا ارى ان التقدم الى الغاية ، وعدم التقدم امام ما احسّ ، سواء .. ومنذ البارحة احاول تفسير هذا الاحساس ولا استطيع .

ـ إنك تقلقني يا حضرة المركيز .

ـ وانا بعدُ غاضب على نفسي ، لأني غضبت على اصدقائي .

ـ كيف ؟

ـ لقد ألحّ علي الاصدقاء بضرورة اطلاع الامير على زواجي ، وهم يعترفون بأني غير ملزم بذلك ، ولكن اللياقة والتقاليد ، تقضي بان لا اتجاهل وجوده ، وكنت ضعيفاً امام الحاحهم ، فوعدتهم بأني سأفعل ، وعلي ان

في بوعدي .

فامتقع وجه كلاوديا قليلاً ، فقالت :

ـ اذن .. ستراه .

وما اتمت قولها حتى اقبل الخادم يقول :

ـ إن رئيس الديوان مارينللي يسأل عن حضرة المركيز.

* * *

مارينللي !.. ان هذا الرجل ، في مقدمة الذين ، من اجلهم ، كره المركيز البلاط ، وقاطعه !

وكان مارينللي قد دخل في اثر الخادم ، فقال لكلاوديا :

ـ عذراً يا سيدتي .

ثم التفت نحو المركيز ، وقال له :

ـ اني آتٍ من منزلك يا سيدي المركيز .. ولديَّ مهمة عاجلة لك ، فاذا شاءت سيدتي .. ان المهمة خاصة ، وبضع دقائق كافية لاطلاع المركيزة عليها .

فحنت كلاوديا رأسها وخرجت ، وكان المركيز ينظر الى الرجل الذي يكره ، ويتساءل عن المهمة التي لديه .. اما تكون من « المهمات » التي امتاز هذا الرجل بتدبيرها ، لارضاء مولاه الذي مرّغ بالتراب نبله ؟

ولما بات واياه منفردين ، قال له :

– هات ما عندك .

فتصنع مارينللي لهجة الرسول الامين ، وقال :

– اني هنا بأمر صاحب السمو .

– وبمَ يأمر سموّه ؟

– وشرف لي ان اكون رسوله اليك .

– وبعد ؟

– ان المركيز ابياني لا يريد ان يسلم باني من اصدقائه ، ومع ذلك فقد اتيت لأبرهن له على صداقتي .

– ارجو ان تتكلم بدون مقدمات .

– كما تشاء .. يريد سموّه ان يبعث معتمداً من قبله الى امير ماسّا ، بمهمة تتعلق بقرانه من صاحبة السمو الاميرة ابنته ، وبعد ان استعرض الشخصيات اللائقة لذلك ، وقع اختياره عليك .

– عليّ انا ؟

– وهذا .. ولا تبجح يا حضرة المركيز ، إنما كان بتدخلي وشوري عليه .

فتظاهر المركيز بالارتياح الى ما سمع ، وقال :

ـ لا أدري كيف أشكر .. لقد كنت قطعت الامل من رضى الامير ، ومن عوده الى استخدامي .

فقال مارينللي ، وقد خدعته لهجته :

ـ لقد أكد لي سموه انه كان ينتظر الفرصة المناسبة لذلك ، وقد سنحت الفرصة الان ، والمهمة على سموّ قدرها اقل بكثير مما يليق بالمركيز ابياني ، ولكنها في اي حال دليل على صدق المودة التي اكنها له .

ـ على .. صدق .. المودة ..

وتابع المركيز متهكما :

ـ أرئيس الديوان مارينللي يقول هذا ؟

وكان على مارينللي ان « يتثعلب » ما استطاع فقال :

ـ اني اعترف بخطأي يا حضرة المركيز .. فأنا اسعى لكسب صداقتك دون استئذانك .. وما الداعي بعد لكل هذا .. ان الشرف الذي اولاك الامير لا يقلل الشك ؛ من قدره ، وما اخالك الا متلقيه بالحرارة والشكر .

فغمغم المركيز كاتماً حقيقة شعوره :

ـ على كل حال .

ـ اذن ، هيا بنا .

– الى اين ؟

– الى دوزالو ، فسموّه بانتظارك هناك ، ولا بد من سفرك اليوم .

– اليوم ؟

– الساعة ، فالأمر جدّ مُلحّ .

– اذن .. يؤسفني رفض الشرف الذي اراد الامير ان يخصني به .

فانتفض مارينللي كمن لم يكن يتوقع مثل هذا الرفض، وقال :

– كيف ؟

– لا استطيع السفر اليوم ، ولا غداً ، ولا بعد غد .

– أتمزح يا حضرة المركيز ؟

– معك ؟

– معي ، لا بأس .. اما اذا كان مع الامـــير ، فأخشى ان ينقلب المزاح مأساة .

ثم قال ، كمن يريد جواباً نهائياً :

– ألا يمكنك السفر ؟

فأجاب المركيز حازماً :

ـ لا ، وارجو ان يقبل الامير عذري .

ـ واي عذر لك ؟

ـ أوه .. عذر تافه .. فأنا سأتزوج اليوم .

وكأن مارينللي قد استعد مقدماً على الرد ، فقال :

ـ هذا حسن .. ثم ماذا ؟

ـ ثم ماذا .. ابعد سؤالك هذا من سذاجة ؟

ـ يمكنك ألا تتزوج اليوم .

ـ آه ؟

ـ أما من حفلات زواج تؤجل ، وبخاصة اذا كان في تأجيلها رضى سموّه ؟

فلم يتمالك المركيز اذ ذاك من الجهر بما يداخله من شعور نحو الأمير ، فقال :

ـ رضى سموه .. ولكن الامير ليس من السادة الذين يرغب المرء في كسب رضاهم بالتضحية ، ومع ذلك فأنا افهم ان تكون انت شخصياً ، ملزماً بامتثال اوامره ، واما انا .. انا ، لست عبداً في بلاط الأمير ، ولا ينس سموه ان مثل هذا الخاطر لا يجوز ان يخطر له .

ـ يجوز او لا يجوز .. اليس هو السيد الآمر ؟

ـ لا داعي للجدل .. بلغ الامير ما سمعت ، وأسفي شديد .. فالسعادة التي انا وإياها اليوم على موعد ، تضطرني الى رفض عطفه السامي ...

ـ ولا ترى موجباً لاطلاعه على اسم الفتاة التي ستصبح رفيقة عمرك ؟

ـ ليس هذا بسرّ ، فهي فتاة هـــذا المنزل ، آمبليا كالوتي .

ـ أحم ..

ـ ماذا ؟

ـ ليس ما يمنع اذن تأخير مراسيم الزواج .

ـ ليس ما يمنع ..

ـ فالوالدان الطيبان لن يترددا في الموافقة على ذلك .

ـ الوالدان الطيبان ..

ـ وتبقى لك آميليا .

وكان الخبيث يتكلم وفي لهجته السمجة ما حمل المركيز على الغضب ، فقال بلهجة من يريد وضع حد لسماجته وخبثه:

ـ أتدري انك تشبه القرد بحركاتك ؟

فانتفض مارينللي « للاهانة » وقال :

ـ انا ؟

ـ انت .

فتراجع رئيس الديوان ، وقد امتقع لونه ، قائلا :

ـ لا بأس .. وسنلتقي .

فضحك المركيز ، وكال له الصفعة الثانية ، بقوله :

ـ والقرد يضحك حقاً .

ـ يا للعنة .. الترضية يا مركيز الترضية .

ـ لك الترضية التي تشاء .

وتأهب المركيز « لترضيته » .. فالبراز مع هـذا الرجل لا شرف فيه ، ولكن خبثه وسماجته يفرضان وضع حدّ له ، واذ رآه يتردد في تلبية الدعوة ، قال :

ـ ما بالك تتردّد ؟

فجرض مارينللي بريقه ، وقال :

ـ لقد كنت اودُّ ان أفعل الآن ، ولكني لا أريد ان احرم « العريس » العسادة التي يتهيأ لها ، والأيام بيننا.

فضحك المركيز ضحكة ساخرة ، وقال :

ـ ما أطيبك .. ومع ذلك فقـد أردت إبعادي الى ماسّا .

وأمسكه من يده ، وتابع :

ـ اما الى ماسّا فالدرب بعيدة ، واما الى « الترضية » فما هي الا خطوات الى الخارج ، ومن بعدها بضع دقائق.

فأفلت مارينالي منه ، قائلاً :

ـ الآن لا .. وسنلتقي يا مركيز .

وخرج لا يلوي على شيء ، والمركيز ينظر اليه باحتقار ، ويشيعه بقهقهة .. وما كاد يتوارى حتى اقبلت كلاوديا ، ودلائل الخوف والقلق بادية عليها ، وقالت للمركيز :

ـ لقد سمعت مناقشة حادة ، ووجهك ينم على ثورة نفسية ، فماذا حدث ؟

وكان المركيز قد استعاد بعض مرحه ، كأن الهزيمة التي مني الثعلب بها قد فرجت عنه ، فقال :

ـ لا شيء يا سيدتي .. لقد أسدى رئيس الديوان اليّ معروفاً ، حيث حررني من وعدي الاصدقـــاء بالذهاب الى الأمير .

ـ حقاً ؟

ـ نعم ، وعلى هذا فقـــد بات في وسعنا الاسراع في السفر ، وانا ماضٍ لاعداد العدة له ، ريثما تكون آميليا

قد تهيأت بدورها .

فقالت كلاوديا :

ـ أأستطيع ان اكون مطمئنة يا حضرة المركيز ؟

قال ، وعلى فمه ابتسامة هادئة :

ـ كل الاطمئنان يا سيدتي .

وخرج ...

- ٣ -

انتقل الامير من المدينة الى قصره الريفي في دوزالو ، وكان يفكر في آميليا ، في هذه المرأة الساحرة التي خلبت لبه .. فماذا أعدّ رئيس ديوانه الداهية لاسعاده بها ؟

ان مارينللي لأدهى الدهاة .

وحين يرسم خطة ينفذها ببراعة جهنمية .

ولكنه قد أبطأ في العودة .

وكان لا بدّ للأمير من قتل الوقت ، فجلس يستعيد ذكرى لقاته الأول بآميليا ، ثم ذكرى مطاردتها الأخيرة .. منذ بضع ساعات .. في الكنيسة ، ويردد الكلمات العذاب التي هامسها بها ، ويقنع نفسه بان هذه الكلمات قد دخلت الى أعماقها ، ولولا حرمة المكان وخجل العذارى ، لما تردّدت في مبادلته بمثلها .

وتذكر فجأة نفورها في الآخر منه ، فما معنى هـــذا النفور ، ان لم يكن استنكاراً لجرأته وصنيعه ؟

وكاد يكتئب ويغضب .. ولكنه تذكر ما له من السيادة والسلطان ، وتذكر ان مارينللي يعمل الآن باسمه ،

فما لا يناله بالرضى سيناله بالقوة .

واقبل رئيس الديوان ، فكاد ينسى وقار الامارة وجلالها ، في سؤاله :

ـ ماذا عملت ؟

فجرض اللعين بريقه ، واجاب :

ـ لقد حاولت ابعاد المركيز اولاً ، على النحو الذي اتفقنا عليه ، ولكنه رفض الشرف الذي تعطفت بمنحه إياه.

فقطب الامير جبينه ، وقال :

ـ وعلى هذا فقد أخفقت .. وستصبح آميليا زوجاً له اليوم ؟

ـ آسف .

ـ آسف .. وما الفائدة من أسفك ، بعد ان منيتني بها ، وقلت ان الخطة التي رسمتها مضمونة النجاح ؟

وثار ثائر غضبه ، فتابع :

ـ لقد كنت ولا شك وقحاً في مخاطبتك المركيز .. وكثيراً ما تكون خطة الاحمق حسنة ، على ان يتولى تنفيذها عاقل ، وهذا ما كان يجب ان افكر فيه .

فتصنع مارينللي الحرد ، وقال :

– أهذا جزائي يا مولاي ؟

– جزاؤك ... وعلامَ ؟

– لقد حاولت حمل المركيز على قبول المهمة ، ولما شعرت بأني مخفق في ذلك ، وبأنه يسترخص التضحية بكل شيء في سبيل حبه ، اضطررت الى اثارته بالقول ، فأغلظ لي الجواب وأهانني ، فطالبته بالترضية في الحال ، لعلي أقتله فيخلو الجوّ لمولاي ، او يقتلـــني فيضطر الى الهرب ، ويخلو لمولاي الجوّ كذلك .

– وماذا كان ؟

– لقد أقدمت مجنوناً على مثل هذه التضحية ، وكنت على أتم الاستعداد للمضي بها الى النهاية ، وهذا في اعتقادي أقل ما يفرضه علي واجب الامانة والاخلاص لمولاي .

– وماذا كان ... أتردّد المركيز ، وعهدي به لا يتردّد في الاقدام على مغامرة كهذه ؟

– لم يتردد أولاً .. ثم .. رأى ان يرجيء الأمر الى ما بعد زواجه ، الى ما بعد زواجه بثمانية ايام .

فغمغم الأمير بقهر :

– الى ما بعد ظفره بآميليا .

وتابع بجدة :

ـ واكتفيت .. اكتفيت بهذا ، وجئت تمنُّ بقولك: إنك عرّضت بحياتك للخطر من أجلي ؟

ـ أكان لي أن أفعل أكثر من هذا ؟

ـ اكثر من هذا ؟

وصرف بأسنانه ، وقال كمن يخاطب نفسه :

ـ كأنه فعل شيئاً .

فكان على الخبيث ان يردَّ على التهكم بمثله ، فقال :

ـ وأنت .. وأنت يا مولاي الأمير .. لننظر الى ما فعلت لنفسك .. لقد كنت سعيداً بما هامستها في الكنيسة، فما الذي قلته لها ؟

فقال الأمير ساخراً :

ـ فضول .. وعليَّ ان ارضي فضولك .. لقد سار كل شيء طبق المرام ، ولا حاجة بعدُ الى خدماتك وتضحياتك ، فهي لم تبدِ اي امتعاض ، وكانت بالعكس سعيدة بما سمعت ، وكان في استطاعتي ان اجيء بها الى هنا، ولكني لم أفعل لأرى الى اي حدّ تدعي انت خدمتي .

وتابع بلهجة جدية :

– والآن وقد اطلعتك على ما تريد فيمكنك ان تذهب.

فقال مارينلي باللهجة نفسها :

– ان أذهب .. أهنا تنتهي الأغنية ؟

ثم تابع كمن يرى ان الوقت قد حان لاطلاع الأمير على ما دبّر من خطة ، قال :

– لقد شككت في حسن تدبيري واخلاصي ، ومع ذلك فسترى اني عملت شيئاً .. أإذا استولينا على العروس، ألا يمتنع الزواج ؟

فضحك الأمير ساخراً :

– اذا استولينا على العروس .. وتريد ان اضع خمسين جندياً من حرسي الخاص تحت امرتك ، فتمضي وتهاجم بهم مركبة المركيز ، على قارعة الطريق ، لتنفيذ فكرتك السخيفة ؟

– قد لا أحتاج الى جنودك لهذا .

– وما يمنعك ان تفعل ؟

– أطلب الأمان أولاً .. اما يجوز ان تقع حوادث مؤلمة ؟

فقال الامير بنزق :

ـ ومتى كنت لأحاسب الناس على امور ، لم يستطيعوا منع وقوعها ؟

ـ اذن ..

وقبل ان يمضي في القول ، دوى في الخارج طلق ناري ، فقال :

ـ أسمعت يا مولاي ؟

وكان الامير قد سمع الطلق ، وأرهف السمع كمن ينتظر جلاء الواقع بسماع شيء آخر ، فقال :

ـ ما هذا ؟

ودوت طلقة ثانية ، فقال مارينللي :

ـ ماذا تريد ان يكون ، سوى مـــا اراد خادمك الامين ان يكون ، لكسب رضاك وثقتك .

فقال الامير مرتبكا :

ـ لا افهم .

ـ باختصار القول يا مولاي ، ان الخطة التي رسمتها لمنع زواج المركيز ، ولحمل آميليا اليك ، قد نفذت .

فهتف الامير بفرح يخنقه الذعر :

ـ تقول ؟

– ما قلت تماماً .. أنسيت انك اعطيتني الامان ؟

– أعطيتك الامان .. وطريقة التنفيذ ؟

– بسيطة جداً .. لقد عهدت الى اختصاصيين مجربين، بقطع الطريق على موكب العروسين ، بجانب حديقة قصرك هذا تماماً ، وحال وصول الموكب الى هنا ، يهاجم البعض منهم المركبة ، متظاهرين بسلب من فيها ، فيتصدى لهم البعض الآخر ، وفي جملة هؤلاء خادمي الخاص ، متظاهرين بنجدة المعتدى عليهم ، وفي خـــلال المعركة يحمل خادمي العروس ، كمن يحاول انقاذها من الخطر المحدق بها ، ويأتي بها الى الحديقة ، ومن ثم الى هنا .

وابتسم اللعين ابتسامة القرد ، وتابع :

– فكيف يرى مولاي الامير خطتي ؟

ولم يرَ الامير في الخطة الدنيئة ما يمسُّ نبله ، فقال :

– خطة فريدة .. أأطمئن اليها ؟

وكان مارينللي قد وقف الى النافذة يستطلع مـــا في الخارج ، فقال له :

عمَّ تبحث ؟

وكأن الشقي قد وجد ضالته ، فقال :

– ها هو .. لقد اقبل بشيرا بنجاح الخطة .

والتفت الى الامير قائلا :

– ابتعد يا مولاي ، يجب ان لا يراك هنا .

فتأوه الامير مرتاحاً :

– آه ، يا مارينللي .

فقال اللعين معتزاً :

– لقد اتهمتني بالتقصير ، فما ترى الآن ؟

– لا شيء بعد .

– سترى كل شيء .

ورجاه مرة ثانية بأن يتوارى ، فالقادم لا يعلم ان له اية علاقة بالموضوع ، ولا يجوز ان يعلم ، فلم يرَ الامير بداً من النزول على رجائه .

***

لقد رسم مارينللي خطته الجهنمية الدنيئة ، ولم يفكر وهو يرسمها في سوى إرضاء مولاه ، ورضى هـــذا المولى الخليع الفاقد الشعور الانساني ، يبيح ارتكاب كل جرم ، وفي امارة كواستالا ، تسرح الجريمة وتمرح ، ولا تجد من يطاردها بالعقاب ؛ وبخاصة متى كانت في حماية الامير ،

ومقربيه واعوانه .

فما اتعس نبلاء النفوس والاخلاق في مثل هذه الامارة.

وكان على المركيز ابياني وعروسه العفيفة النقية ، وعلى والدي هذه العروس الشرفاء ، وعلى الانسانية الثكلى في كواستالا ، الغارقة في الفحش ، كان على هؤلاء ان يكفروا بدمهم وهنائهم ، عن الخطايا التي تُرتكب فيها باسم « السيادة » التي فرضتها اقطاعية الزمن عليهم .

ومارينللي يخشى ان لا تكون خطته قد نجحت ، كما لو ان هذه الخطة الشريرة الحقيرة ، مما تفرض تنفيذه ونجاحه شرائع الله ... فما كاد الامير يتوارى ، حتى اطلّ من النافذة يشرف على الجبهة :

فاذا هناك مركبة تعود نحو المدينة ، وعلى كلٍّ من جانبيها خادم ... ولم يرقه هذا ... فهو يخشى ان تكون خطته قد اخفقت ، وان يكون المركيز قد افلت من الشرك ، وان تكون الجريمة التي مهّد لها قد ضلت سبيلها.

ولكن ... هذا آنجلو ... هذا هو بعينه ، قائد الحملة التي جهزها لتنفيذ خطته ، وهو يلوح بيديه ، وفي تلويحه ارتياح ، فالخطة ولا شك قد نجحت .

وهزه « الطرب » فقال يخاطب المركيز ، هذا الذي اهانه ، بعد ان رفض « الشرف » الذي راح يحمله اليه :

ـ آه ، يا مركيز ... لقد وجدت الطريق الى ماسّا طويلة ، فما قولك في الطريق التي مضيت فيها الآن ؟

وقهقه متابعاً :

ـ لقد كان عليك ان تحذر القرود وانتقامهم .

وكان آنجلو قد اقبل ، فخف اليه سائلًا :

ـ أبشرى يا آنجلو ؟

فأجاب الشقي ، وكأنه قد أتى عملًا فذاً :

ـ ومتى كنت غير بشير ؟

وتابع بفخر :

ـ قليلًا وتكون الفتاة هنا .

ـ وبعد ... كيف جرت الحوادث ؟

ـ بطريقة عادية .

ـ والمركيز ؟

ـ لقد كان مستعداً كما بدا لي .

ـ ومات ؟

ـ قليلًا ... وأسفي شديد عليه .

– ما ارق قلبك .

وقهقه مارينللي ... ثم اخرج من جيبه كيس نقود ، وناوله الى الشقي الذي كان بانتظاره ، قائلا :

– اليك بهذا ... اما تجد فيه تعزية على مصابك به ؟!

فغمغم آنجلو :

– على مصابي به ... اما مصابي بصديقي نيقولا فأعمق من ان تصل اليه تعزية .

– اذن لقد تعادلت الخسارة .

– لقد كان نيقولا اكثر من صديق لي ، وانا وريثه الوحيد في الدنيا ، وعلى هذا اتفقنا و..

فقاطعه مارينللي :

– دعني من نيقولا الآن ... لك ان تندبه وترثيه في غير هذا المكان ، وحدثني عن المركيز .

– لقد هاجم المركيز نيقولا وهاجمت انا المركيز ، فأرديته ... ولكنه عاد الى المركبة حياً ، واعتقد انه لن يخرج منها إلا الى النعش .

– تعتقد ... ما نزال اذن في مرحلة الاعتقاد ، ولا تؤكد لي موته ؟

ـ عندما اقول اعتقد فمعنى ذلك التأكيد .

والآن ألسيدي من حاجة بعد ؟

وكان مارينللي يفكر ، فتابع :

ـ إن طريقي بعيدة ، وعليّ ان اجتاز الحدود اليوم، واذا احتجت الي يوماً ، فأنت تعلم اين تسأل عني .

قال هذا وخرج .

وبقي مارينللي مستغرقاً في تفكيره .

أيكون المركيز في قيد الحياة بعد ؟

* * *

لقد توارى الامير ، ولكن عينيه كانتا في الحديقة ، وفي ما يجاور الحديقة ، وهما تبحثان عن اميليا ... عن آميليـــا فقط ... ويكفي ان يراها قادمة اليه، وان لا يرى وراءها حيّا ، ممن خاضوا حولها المعركة .

وها هي تتراءى .

ولم يصدق عينيه .

فعاد الى مارينللي ، بعد ان خرج آنجلو وقال له فرحاً .

ـ لقد اتت ... انها تمشي في سرعة امام « منقذيها » والخوف آخذ منها كل مأخذ ... ان الشك لم يخامرها بعد

وكل ما تعلم انها كادت تذهب ضحية اشقياء سفاكين ، فالى مَ يمكن حملها على مثل هذا التوهم ؟

فقال مارينللي :

– وما يهمنا بعدُ ، وقد باتت في يدنا ؟

– وامها .. والمركيز .. وأبوها .. اما يدعو هؤلاء جميعهم الى التفكير والهم ؟

– ليس الى الحد الذي تخشاه .. ولا نستبق بعدُ الحوادث. أبعد الخطوة التي خطونا نستصعب السير في طريقنا ؟

– واذا اضطررنا الى التراجع ؟

– وما الذي يضطرنا اليه ؟

وتابع بهدوء أشاع الطمأنينة في نفس الامير :

– ما عليك ان تقلق يا مولاي ، وكل ما عليك الان ان تعرف كيف تستدرج الفتاة بلباقة الامير العاشق .

فقال الامير :

– اللباقة .. تلك من تراثنا يا مارينللي ، ولكنها تخوننا عندما نكون في اشد الحاجة اليها ، وما قلت صدقاً عندما حدثتك عن مغامرتي في الكنيسة ، فالفتاة لم تصغ الى كلمة من كلماتي الرقيقة ، بل كانت ترتعد خوفاً مني ، كانها

امام جلاد يقودها الى النطع ، وأكاد اقتنع باني لم اكن لبقاً أبداً بمخاطبتها ، وعلى هذا أرى ان لا اكون الآن في استقبالها ، وادع لك مهمة الترحيب بها ومواساتهـــا ، وسأكون على مقربة منكما مستمعاً ، على ان اعود اليكما في الوقت المناسب .

قال هذا ومضى ، وبقي مارينللي بانتظـــار الفتاة ، وكان يقول في نفسه :

ـ ارجو ان لا تكون قـد شهدت مصرع المركيز ، ولعلها لم تشهده .. ولا ارى من الحكمة ان اكون اول من يقع بصرها عليه .

وتوارى في احدى الزوايا .

* * *

لقد فوجئت آميليا بما حدث ، بينما هي تحلم بالسعادة العاجلة ، وتنظر الى الطريق التي تقودها الى هذه السعادة ، فتراها مفروشة بالزهر .

وكاد يغمى عليها هلعاً ، عندمـا رأت زمرة الاشقياء التي هاجمتهم تحدق بالمركبـة ، وشاهدت المركيز يترجل وقد تأهب للقاهم ... وعاد اليها بعض روعها لرؤيتها آخرين

يقبلون لنجدتهم ، فمن يكون المهاجمون الاشقياء ، وما يطلبون منهم ؟

وكانت كالريشة في مهب الريح ، عندما دارت رحى القتال ، واقبل من يدعوها الى النجاة بنفسها ، فلم تدر كيف لبت الدعوة ، ولا ما كان بعدها من نتائج المعركة.

ولم تفق من ذهولها إلا في القصر ، في هـذا القصر الغريب الذي لا تعرف اصحابه ، فقـالت للرجل الذي جاء بها اليه :

ـ اين انا ... اين امي والمركيز ؟

فكان على الرجل ، ولم يكن سوى خادم مارينللي نفسه ، ان يكذب كسيده ، فقال :

ـ انت في دار اصدقاء ، وامك والمركيز ... قد يلحقان بك الى هنا .

ـ قد يلحقان بي ... ألست متأكداً من ذلك ؟

وتذكرت هنا شيئاً ، فقالت :

ـ لقد اطلقت عيارات نارية بعد ابتعادنا .

ـ عيارات نارية ؟

ـ اجل ... اما تكون قد اصابت امي او المركيز ؟

فتظاهر الخادم اللئيم كسيده بالاهتمام ، وقال :

ـ عليّ اذن ان اعود ادراجي وارى .

وكان القلق قد استولى عليها ، فصاحت :

ـ اعود واياك ... اعود واياك ..

وقبل ان تخطو خطوة في اثره ، تصدى لها مارينللي هاتفاً :

ـ آه ، يا آنسة .. أية مصيبة .. بل اية صدفة سعيدة اولتنا هذا الشرف ؟

فتراجعت آميليا دهشة ، وقالت :

ـ انت هنا .. وانا في منزلك ؟

وخيل اليها ان الطمأنينة في جوار هذا الرجل ، فراحت تشكو اليه باكية :

ـ آه ، يا سيدي .. لقد هاجمنا قطاع الطرق ، بالقرب من هذا المكان وهب بعض الرجال لنجدتنا ، وجاء بي الرجل الذي رأيت الى هنا ، ولا اعلم ما حل بأمي ... لقد دارت هناك معركة ، وسمعت طلقات نارية ، وقد تكون اصابت امي ... آه ، امي الحبيبة ... اريد ان اذهب اليها . ان اراها ، فما تطيب لي الحياة بعدها ،

وكان عليّ ان ابقى بقربها .

فتصنع مارينللي اللطف والتأثر ، وقال :

ـ هدئي من روعك يا آنسة .. لا شيء يدعو الى القلق ، وقريباً يلحق احباؤك بك ، وقد بعثت من يبحث عنهم ، واعتقد ان المعركة لم تسفر عن اي حادث مؤلم .

وكان في لهجته من « الحنّو » ما بعث بعض الطمأنينة في نفسها ، فقالت :

ـ إنك رجل كريم .

وعاودها القلق ، فاستدركت :

ـ ولكني أريد الخروج ... اريد العود الى حيث تركتهما ، فلن يهدأ لي بال قبل ان اراهما بعيني .

فبات على اللعين أن يضع حداً لاصرارها ، فقال :

ـ لا داعي لذلك ، وأنت متعبة مرهقة ، ولا بدّ لك من الراحة ، وفي القصر أكثر من غرفة مهيأة لنزولك فهيّا ... وكوني واثقة بأن الامير نفسه سيبحث عن امك ويأتيك بها .

فأحست آميليا كأن صاعقة قد انقضت عليها .

الامير ... اي امير ؟

وكان لا بد من استيضاح ، فقالت :

ـ من تقول ؟

ـ اقول الامير .. سموّ اميرنا بالذات .. فهو هنا في قصره ، وقد ساءه ما حدث ، وأمر بتعقب الاشقياء ، وسيكون عقابهم شديداً .

وكان حديثه طبيعياً ، وكان عليها ان تتناسى قصة الأمير في الكنيسة ، ولا ترى امامها سوى الحاكم الذي يقتص للبريء من المجرم ، فقالت :

ـ ما أغرب الصدفة ... وتعتقد ان سموّه سيهتم للبحث عن امي ، ويأتي بها الي ؟

ـ كل الاعتقاد ... وها هو قد اقبل ، فكوني ما ارجو ان تكوني شجاعة ولطفاً في حضرته ..

* * *

وكان على الامير ان يكون اميراً في غمرة هذه المرحلة ، هذه الخطوة التمهيدية للجريمة الكبرى ، فأقبل على الفتاة في هيبة الامراء ، وقال :

ـ سلام يا آنسة .. لقد بحثنا عنك في كل مكان ، ولم ندر انك هنا في حمانا ، فالحمدلله على سلامتك .

فخرت الفتاة على قدميه باكية :

آه يا مولاي ... لا سلامة لي الا بسلامة امي ، فأين هي ؟

فانهضها قائلا :

- انهضي يا فتاتي ... أمك بخير ، وشر بعيدة منك ، وكذلك الآخرون .. فهات ذراعك ، وتعالي معي ، وكوني مطمئنة .

- أحاول أن اطمئن يا مولاي ، ولا أقوى على ذلك ، ونفسي تحدثني بمصيبة ... اما كان يجب أن يلحقوا بي الى هنا ، لو انهم في قيد الحياة ؟

- في قيد الحياة يا آنستي ، في قيد الحياة ، فتعالي . وشعرت بشيء .

وعاودتها ذكرى الكنيسة ، فارتمت ثانية على قدميه ، هاتفة :

- رحماك ...

وكان قد ابتدأ يتنازل عن عرش الامارة ، فراح يحدثها بلغة الرجل الذي لا يتردد في التذلل لاسترضائها :

- انهضي يا اميليا ... ودعيني استغفرك ذنب الصباح ،

فقد كنت اذ ذاك ضعيفاً ، ولم يكن لي ان ازعجك باعترافات حمقاء ، ولكن ضعفي كان أقوى من ارادتي ، وقد عوقبت على هذا الضعف بصدك لي ، وكان العقاب عدلا .

وخيل اليه أن الذهول الذي استولى على الفتاة ، انما هو اصغاء ، فتابع :

ألي بعدُ ، أن أعدّ الحادث المؤسف الذي وقع لك ، في جوار قصري هذا ، طلعة فجر السعادة التي انتظرها بقربك ؟

وكان ذهول آميليا الصامت ، قد ابتدأ يتحول عاصفة صامتة في نفسها... فأخذت ترتجف كالقصبة في مهب الريح ، وكان عليه أن يهديء من روعها « بلباقة » فلطف من لهجته الى مدى بعيد ، وقال :

ـ لا ترتجفي ... لن أزعجك بكلمة ، ولا اسمح لنفسي بتنهدة تمسُّ شعورك ، على أن تقدري شعوري نحوك ، ولا تقضي على هذا الشعور بنظرة شك واحدة ، ومهما يكن من أمر ، فأنت هنا في مأمن ، ولن تحتاجي الى من يحميك مني .

كان في غمرة من شعور انساني ، انسى الفتاة موقفها ، وشجعه الهدوء الذي عاودها ، على المضي في تمثيل دور الأمير

الكريم ، فقال لها :

ـ إنك بحاجة الى الراحة ، فتعالي معي الى حيث تجدينها موفورة لك .

وقال لمارينلي :

ـ اتبعنا .

وقاد الفتاة التي لم تقو على الممانعة ، ولم يكن لها أن تمانع ، بعد أن أمنها على نفسها ، وبدا لها أنه صادق في ذلك .

ولم يكن لغير اللعين مارينلي أن يفهم معنى قوله « اتبعنا » فقال لنفسه :

ـ « اتبعنا » ... معناها لا تتبعنا ... وما شأني بعدُ معهما ؟

وكان عليه أن يفكر في المركيز ، فهو لم يعرف بعدُ مصيره ، وليس من يؤكد له أنه قتل ، وقد يزعج بقاؤه في قيد الحياة ، ولكن الى حدّ ... وأما الوالدة ، فهل يعقل أن تنسحب ، دون أن تهتم لمصير ابنتها ؟

وبينا هو في التفكير عاد خادمه يقول :

ـ الوالدة يا سيدي .

ولم يكن مخطئاً في تفكيره ، فقال :

واين هي ؟

- تركتها قادمة في اثري ، ولا اعلم من قال لها إن ابنتها هنا ، فقد رأيت جمعاً كبيراً يحيط بها ، وهي تصرخ مستنجدة ملتاعة ، وتسأل عنها .

لم يكن ذهول كلاوديا للمفاجأة الخطرة التي روعتها بأقل من ذهول اميليا ... ولم تفق من ذهولها ، الا لترى المركيز صريعاً يتخبط بدمه ، وفلذة كبدها بعيدة منها دون ان تدري كيف توارت .

وكانت تصرخ وتستنجد ، وابت أن تفارق مسرح الحادث ، بالرغم من هول المأساة التي شهدت عليه ، قبل ان تعرف مصير ابنتها .

وكان نبأ الحادث قد انتشر ، وتراكض القرويون الى حيث وقع ، وأحاطوا بالأم الثكلى يحاولون تهدئة روعها ، ولا يجدون الى ذلك سبيلا .

وجاء أخيراً من يقول : انه شاهد الفتاة ، في رفقة رجل من القصر ، فهي ولا شك هناك ... وقيل هذا للأم ، فهرعت كالمجنونة ، وهي لا تصدق انها ستلقى بعد آميليا ، وتضمها الى صدرها .

ولم تنتظر ان يؤذن لها بالدخول ، بل اندفعت الى الداخل صارخة :

- آميليا ... آميليا ...

وكان خادم مارينللي اول من اعترضها ، فصاحت به قائلة :

- أين ابنتي ... لقد جيء بها الى هنا ، فأين هي ايها الشقي ؟

فكان على الخادم ان يهدىء العاصفة الثائرة ، قبل ان تهب على القصر وتزعج من فيه ، فقال لها ملاطفاً :

- اطمأني يا سيدتي ... انا الذي جئت بابنتك الى هنا ، وكنت أظن أنك قد رأيتني ساعة انقذتها ، وهي الآن آمنة هانئة ، وهذا سيدي في خدمتك ، وسيقودك بنفسه اليها .

فارسلت كلاوديا آهة ارتياح خرجت من اعماقها ، وقالت :

- عفوك ايها الرجل الطيب .

ووقع بصرها على مارينللي ، فتراجعت الى الوراء مذعورة ، وقالت :

- أنت ... أنت هنا يا سيدي ... وابنتي هنا في منزلك ... وانت الذي ستقودني اليها ؟

فانحنى مارينللي متصنعاً اللطف والاحترام ، وقال :

ـ بكل سرور يا سيدتي .

فقالت كلاوديا متذكرة :

ـ ولكن ... أما أنت الذي زرت المركيز صباح هذا اليوم في منزلي ، وحصلت بينك وبينه مشادّة ؟

فقال الخبيث مموّهاً :

ـ مشادة ... لا ... جدل تافه ، حول موضوع خاص .

ـ واسمك مارينللي ؟

ـ مارشيزه مارينللي .

ـ مارشيزه مارينللي ... لقد كان اسم مارينللي ، هذا الاسم بالذات ، آخر كلمة خرجت من بين شفتي المركيز عند موته .

فهتف مارينللي بهزة سرور لم يقوَ على كتمانها :

ـ المركيز ... عند موته ؟

ـ نعم يا سيدي ... ولكنها لم تخرج سليمة ، فقد رافقتها لعنة قاسية ، ولكنت اودُّ لو اني لم اسمع هذه اللعنة ، ولم اضطر الى ترديدهـــا ، وانا امام الرجل الذي سأحفظ له جميل جمعي بابنتي .

ـ لا بأس ... لقد كان المركيز صديقاً حميماً لي ، وطبيعي ان يذكرني في آخر لحظاته .

ـ طبيعي ان يذكر اسمك مقروناً باللعنة ؟

وتابعت كمن تحلّ لغزاً :

ـ لقد كان المجرمون الذين هاجموا مأجورين ، وكان اسمك آخر لعنة خرجت من فم المركيز ، وبلهجة ... آه لو ان في استطاعتي عرض هذه اللهجة على المحكمة .

وكمن افاقت من ذهول جديد :

ـ ولكن ... لي الويل ... لقد نسيت ابنتي ، فأين هي يا رجل ؟

واندفعت في تيار عاطفتها الثائرة :

أتكون قد قتلتها ايضاً ... ما ذنبها هي ، ان كان المركيز ابياني عدوك ؟

فكظم مارينللي غيظه وقال :

ـ صفحاً عن الأم الجزعى ... ان ابنتك هنا يا سيدتي وارجو ان تكون قد استعادت روعها ، ومولانا الأمير نفسه يُعنى بها ، ويبذل كل ما في وسعه لمواساتها .

الامير ... ماذا تسمع ؟

الامير ... لقد ابتدات تفهم ، لقد ابتدأت تحل اللغز ، فالثعلب والذئب كلاهما هنا .

ولم تتمالك من الهتاف :

ـ الامير ... الامير قلت ... يا لتعاستي من ام .. إن لعنة الوالد ستصعقها وتصعقني معاً .

وكانت قد غدت كالمجنونة .

وحاول مارينللي ان يهديء ثورتها ، فكانت تزأر كاللبوءة التي فقدت شبلها :

ـ المأساة ... هذه المأساة ... لقد ابتدأت صباح اليوم في الكنيسة وانتهت هنا .

واندفعت نحو مارينللي مزمجرة :

ـ يا قاتل ... يا جبان ... ليست لك الجرأة على القتل ، وعندك من النذالة ما تسلّح به يد الغدر ... يا احقر القتلة ... يا احقرهم ... لأن شرفاءهم براء من امثالك ... لمَ لا ابصق في وجهك يا انتن من حشرة ؟

وكان على الشقي ان يتمالك ، ان ينطوي على ذله وصغارته ، امام كبرياء تلك المرأة الجريح فقال :

ـ إنكِ تهذين يا سيدة .. اما تعلمين اين انت ؟

فدوّى زئيرها كالرعد :

ـ اين انا ... وما همُ اللبؤة ان يتعالى زئيرها عندما تصاب باشبالها ؟

وكانت آميليا تتقلب على نارها في ذلك القصر الذي ارادوه سجناً وارادته قبراً ، قبل ان ينال ربه منها ما يودّ ، حين سمعت صوت أمها المدوّي ، فصرخت بدورها :

ـ امي ... اسمعيني صوتك يا اماه .

وطرق الصوت اذني الوالدة المحطمة القلب ، فما عادت تعي لشيء ، واندفعت كالعاصفة الى حيث خيل اليها ان ابنتها سجينة ، وهي تصيح :

ـ آميليا ... ها أنذا .

- ٤ -

لا يستطيع قلم ان يصف وصفاً كاملاً اللقاء المؤثر الذي كان بين الأم والابنة ، فالعاطفة الثائرة التي حملت كلاوديا حمل العاصفة لورقة خريف ، وقذفت بها بالشكل الذي رأينا الى حيث كانت ابنتها ، ما عتمت ان تحولت نوعاً من الجنون الهادىء ، يختلط فيه الفرح بالحزن ، وتمتزج فيه الدموع المتفجرة من العيون ، بالقبلات الملتهبة على الجبين والوجنتين .

وكان على الامير ان يحترم الموقف ، وان يقف امام المرأتين المصابتين في صميمها ، وقفة المجرم امام العدالة ... وكان عليه في الاخر ان ينسحب ؛ ان يفسح للألم وغضب الحيبة مجال الانطلاق .

* * *

وتوجه الى مارينللي وقال وهو مرهق :

ـ تعال يا مارينللي ... إني تعب .. هل من راحة لي لديك ؟

وكان على اللعين ان يستجمع في تلك اللحظة دهاءه

كله ، فقال :

ـ يا لغضب الأم .

واطلق ضحكة اهتزلها قلب الامير ، فقال :

ـ أتضحك ؟

لقد كانت هنا وحشاً ضارياً ، حتى اذا رأتك تحولت حملاً ... أمن امرأة حمقاء في الدنيا تخمش عين امير لمجرد انه معجب بابنتها ؟

ـ ما اصبت ... لقد وقعت الفتاة مغشياً عليها ، وهذا ما ذهب بغضب الام ، فاكتفت بنظرة وكلمة للتعبير عما في نفسها مني .

ـ وما الكلمة يا مولاي ؟

ـ لقد سمعتها انت .. اصحيح .. ؟

ـ وهب انه صحيح .

ـ هب انه صحيح .. إذن هو صحيح ... لقد مات المركيز وعلى شفتيه اسمك .

ـ وبعد ؟

ـ اقسم بالله اني بريء من دمه ... لِمَ لم تقل لي إن الامر سيكلف المركيز حياته لأمنع المأساة ؟

– لِمَ لم اقل لك ... اكنت أعلم انه سيموت ؟

وتابع كأنه يروي قصة عادية :

– لقد اوصيت آنجلو بالحكمة ، بألاّ تراق نقطة دم ، ولم يكن ليخالف التوصية ، لو لم يكن المركيز هو البادىء ، فقد اطلق النار على احدهم وقتله .

– كان يجب افهامه ان الامر لا يعدو حدّ المزاح .

– وهذا ما حمل آنجلو على الغضب والانتقام .

– يحق له الغضب .

– وقد عنفته على ذلك .

– احسنت ... واندره بأن لا يطأ بقدميه ارض إمارتي بعد ، او كان تعنيفي له غير تعنيفك .

– وعلى كلٍ فأنا آسف لموت المركيز ... لقد كان عليّ ان ابارزه ، لأنه مدين لي بترضية ، وقد فارق الحياة قبل ان يقدم لي هذه الترضية .

وتابع كمن يقول صدقاً :

– فيا ليته بقي حياً ... وددت ذلك بكل ما املك ، حتى بلفتة رضى مولاي ، فالكرامة الجريح في نفسي تتألم.

وصدقه الامير ... فقال :

ـ اذن مصادفة ... مصادفة كان موته ... انت تؤكد ذلك وانا اصدقه ، ولكن الام وآميليا والناس ، ايصدقون؟

ـ بصعوبة .

ـ سيعتقدون اذن بأن آنجلو هو الآلة المنفّذة وانا الآمر القاتل .

ـ على الارجح .

ـ إلا اذا صرفت النظر عن كل رغبة لي في آميليا .

ـ هذا ما كان يجدر بك فعله لو بقي المركيز حياً .

فكاد الامير يغضب .. ولكنه تمالك ، فقال :

ـ تريد ان تقول إن في موت المركيز خيراً لي ... إن موت مركيز واحد لا يقدم ولا يؤخر ، ولكن الخير يا صديقي في ان يكون الجرم مما يمكن تلافي عقباه ، لا كجرمنا الذي وقع بفضل تنظيمك وتدبيرك العبقري !

فكان على مارينللي ان يتقي التهمة بتهمة ، فقال :

ـ ما دام هذا رأي مولاي في تنظيمي ، فلِمَ لا يكون ذهابك الى الكنيسة هو الذي افسد عليَّ خطتي ؟

ـ كيف ؟

ـ لم يفسد الرفض ولكنه افسد وقعه .

ـ كيف ؟

ـ باختصار ... عندما رسمت خطتي لم تكن آمبليا تعرف شيئاً عن هيامك بها ، وكانت امها اكثر منها جهلاً بذلك ، وعلى هذا الاساس رسمت الخطة ، ولم أكن أدري ان الأمير سيفسدها بتصرفه .

ففكر الامير قليلاً وغمغم :

ـ يا للعنة .

ـ لقد افشيت انت سرّك .

ـ يا للفكرة الملعونة .

ـ ولو لم تفشه لكانت الام والابنة الآن ، في اطمئنان كليّ الى حسن نيتك .

ـ لقد اخطأت فصفحاً ... صفحاً يا مارينللي .

وما انتهى من جملته ، حتى دخل باتيستا خادم مارينللي ، وقال :

ـ لقد وصلت المركيزة يا مولاي .

فهزّ النبأ الامير ، قال :

ـ المركيزة ... أية مركيزة ؟

ـ المركيزة أورزينا .

ـ أورزينا ... اورزينا ... أتسمع يا مارينللي :

فقال مارينللي :

ـ ليست دهشتي بأقل من دهشتك يا مولاي .

وكان ارتباك الأمير قد اضاع بعض صوابه ، فقال للخادم :

ـ اسرع يا باتيستا ... لا تدعها تدخل ... انا لست هنا ... قل لها ذلك ... لتعد ادراجها حالاً ... اسرع .

وتابع كالمجنون :

ـ من قال لها إني هنا ، وماذا تريد ؟

وكان مارينللي واقفاً وقفة اللامبالي ، فقال له :

ـ لماذا لا تتكلم يا مارينللي ... اتراها على علم بما حدث ؟

ولما لم يجبه الخبيث بشيء ، تابع بلهجة المتضرع :

ـ تكلم يا مارينللي ... ما الذي يخرسك ... اتكون قد تأثرت مما ارنا من جدل ... اتريد ان اطلب الصفح منك ؟

فتنهد مارينللي قائلا :

ـ آه يا اميري ... عد الى نفسك وانا بكليتي لك ... إن وجود اورزينا هنا لغز لكلينا ، ولا ارى انها ستذعن

لامرك بالطرد ، فما العمل ؟

ـ عليك التدبير ... ولن استقبلها في اي حال .

ـ أستقبلها انا .

ـ واختصر الحديث معها ... فالوقت ثمين ، ولنـــا اعمال اخرى . فقال اللعين مطمئناً :

ـ لن يكون الا ما يرضيك يا مولاي .

المركيزة اورزينا ... نبلٌ اسميّ متكبر ، في شخصية يعوزها الجمال ، وتأبى إلا ان تبدو جميلة ، حتى في ابتسامتها الساخرة ، وفي نظراتها الزاخرة باحتقار الاشياء .

انها ابنة امير ، وخطيبة امير ، ولكنها غير مطمئنة .. فالمستقبل مظلم ، وهذا الامير الذي هي خطيبته لا يبـدو مخلصاً ، وتودُّ لو انه يصارحها بحقيقة شعوره ، وتخشى في الوقت نفسه هذه المصارحة .

والألم يحزّ في نفسها لهذا .

وكثيراً ما حاولت الاقدام على امر وترددت ... إن لم يصارحها هو ، فعليها ان تحمله على المصارحة ... بهـذا تضع حداً لشكوكها وآلامها ... ورأت اخيراً ان تفعل . ان تخرج نفسها من هوة الشك ، ان تعلم مرة واحدة إن

كان يريدها او لا يريدها .

ولهذا جاءت الى كواستالا .

وارادت ان تختلي به في مكان بعيـــد عن البلاط ، فبعثت اليه بالرسالة التي اهملها ، ولم يفضها ليعلم ما فيها ، لانصرافه بالفكر والروح والعمل ، لهواه الجديد .

ومن غريب المصادفة ان الرسالة كانت دعوة منها لملاقاته في دوزالو ، في قصره الريفي هذا ، وظناً منها انه اطلع على الدعوة ، ولم يرَ بداً من تلبيتها ، اقبلت الآن عليه .

* * *

ودخلت بكبريائها وسخريتها ، وهي تقول :

ـ اما من احد هنا لاستقبالي ، سوى ذلك الخـــادم الوقح الذي اراد منعي من الدخول ؟

ورأت مارينللي ، فقالت له :

ـ آه ، هذا انت .. لقد احسن الامير باستصحابك.. ولكن لا .. لم يحسن بهذا ، فأنا اريد ان اسوّي حسابي معه ، ان اسوّي هذا الحساب مرة واحدة ، فأين هو ؟

فتواضع مارينللي قائلاً :

ـ الامير يا سيدتي المركيزة ؟

– ومن سواه ؟

– اتزعمين انه هنا .. اتعلمين انه هنا ؟

واذ رآها تنظر اليه بترفع ، تابع :

– اما هو فما يدري بوجودك هنا يا سيدتي .

كيف .. الم تصله رسالتي ؟

– رسالتك .. بلى .

– اذن .. الم اطلب منه مقابلة هنا .. إنـــه لم يتنازل الى الجواب ، ولكني علمت انـــه في دوزالو ، فاعتبرت ذلك جواباً .

– انها لمصادفة غريبة .

– مصادفة ... ألم أقل إن هذا متفق عليه ؟

وكان ينظر اليها مستغرباً ، فقالت :

– من يرى السيد مـــارشيزه ينظر اليّ مثل هذه النظرات الغريبة ، لا يشك في ان دماغه الصغير لا يقوى على تفهم أبسط الاشياء .

فكان على مارينللي ان يتكلم ، قال :

– كل احترامي لك يا سيدتي المركيزة .

قالت والكبرياء تكاد ترفعها عن الارض :

– لقد سمعت صوت امراة ، فمن تكون يا مارينللي ؟

ولما لم يجاوب ، تابعت :

– لا تجاوب ، وكل احترامك لي ... ألا لعنة الله على منافقي القصور ... أ في هذه القصور غير النفاق ؟

ومشت الى الداخل قائلة :

– اجبت ام لم تجب ، فاني هنا الآن ، وسأرى بنفسي .

فاعترض مارينللي سبيلها ، قال :

– الى أين ؟

– الى حيث ينتظرني الأمير .

– انك مخطئة يا سيدتي ، فالامير لا ينتظرك ، ولا يستطيع مقابلتك .

– حتى ولو كان هنا ، وبناءً على رسالتي اليه ؟

– ليس بناء على رسالتك .

– أما قلت إنه استلمها ؟

– استلمها ... استلمها ولكنه لم يقرأها .

فهزها الجواب ... لم يقرأها ... أ إلى هذا الحدّ بلغت لا مبالاته بها ؟

ونفرت من عينيها الدمرع ، فقالت :

- لم يكلف نفسه عناء قراءتها؟

- انها كانت بالعمل لا ازدراء.

وعاودتها الكبرياء، فقالت:

- لم يبق الا ان يزدريني.

وصمتت ... وكانت تبدو فريسة لاشد ما في النفس من عوامل متناقضة، ولكنها أبت الا ان تكون من هي في الشدائد، فقالت:

- أرجو يا مارينللي ان يكون الأمر كما قلت، وانا لا اجهل ما لدى الامير من أعمال، تمنعه احياناً من الاهتمام حتى بشؤونه الخاصة ... أقلت ان اهماله امر رسالتي كان لا مبالاة منه لا ازدراء؟

- هو ذاك.

فضحكت ساخرة:

- يا لك من رجل تردّد ما يريد النـــاس منك ان تردّد ... لا مبالاة بدل الحب ... هذا يعني ان قلبه خلوٌ مني ... ان اللامبالاة يا ببغاء القصر لا تكون بما يشغل الروح، بل بما لا علاقة للروح به من امور مادية تافهة، ولكن مثلك لا يملك الفهم الكافي لادراك هذه الحقائق

السامية .

فتمتم مارينللي في نفسه :

ـ يا للشيطان .

قالت : بمَ تحدث نفسك ؟

ـ بالاعجاب ... بالاعجاب الكلي بك ... لم يدرِ احد من قبلُ انك فيلسوفة يا سيدتي المركيزة .

ـ فيلسوفة ... لا فلسفة هنا ... ولو ان لي ان اتفلسف لاحتقرني الأمير ، فالرجل لا يحب ما يحمله على التفكير ، والمرأة التي تفكر عنده ، كالرجل الذي يطلي وجهه بالمساحيق ... ذلك الرجل شأنه العبث والضحك ، وليس لي انا ، ان اضحك ، للمصادفة الغريبة التي حملته على الحضور الى هنا ، دون ان يقرأ رسالتي .

وقهقهت متابعة :

ـ انني اضحك ، فاضحك معي يا هذا ، اضحك . وقالت كلمتها الاخيرة بلهجة الجدّ ، فقال مارينللي :

ـ حالاً يا سيدتي .

ـ ولكن لا ... لا تضحك يا مارينللي ، لأن الذي يضحكني من كل قلبي ، فيه الكثير من الرصانة والجدّ ،

والمصادفة ... هذه المهزلة ... أهي حقاً ما حمل الأمير الى هنا ؟

وكانت قد اصبحت في حالة نفسية تدعو الى التهيب ، فلم يكن لمارينللي إلا الاصغاء اليها ، متابعة :

– صدقني يا هذا .. لا شيء تحت الشمس اسمه مصادفة، وبخاصة تلك الامور التي تشع منها انوار الارادة .

ورفعت عينيها نحو السماء ، راجية :

– ايتها القوة الالهية العادلة .. صفحاً ، اذا قلت : ما المصادفة إلا من صنع هذا الخـــاطيء الصغير ، من صنعه المباشر .

والتفتت الى مارينللي قائلة :

– جرّب ان تخدعني مرة اخرى يا هذا .

فقال مارينللي :

– ولكن يا سيدتي المركيزة ..

– اسكت .. إن في قولك « ولكن » ما يدعو الى التفكير .

وألقت يدها على جبهتها هاتفة :

– رأسي .. رأسي ، يجب ان ارى الامير في الحال ،

فقد بت على وشك ان افقد الرشد والنطق ، وان لي ما اقوله له .

وكان الامير يصغي في الغرفة المجاورة ويسمع ، ورأى ان يضع حداً للجدل القائم ، فخرج متظاهراً بأن ثمة امراً خطراً يشغله ، وهو يقول :

ـ لا بد من الاسراع لنجدته .

ورأته في مثل هذا الانشغال ، فقالت :

ـ هذا هو .

واكتفت بالقول ... وفوجيء ـ متظاهراً ـ برؤيتها ، فقال متكلفاً اللطف :

ـ هه .. مركيزتنا الجميلة .. يؤسفني يا سيدتي ان لا اكون قادراً على استقبالك ، فالأعمال التي حملتني الى هنا كثيرة جداً ، ولسنا بعد وحيدين .. فعذراً يا عزيزتي ، ولا تزعجي نفسك بالانتظار ، راجياً ان نلتقي في غير هذا المكان ، وغير هذه المناسبة .

وتابع سيره مسرعاً ، بعد ان قال لمارينللي :

ـ اما انت فاتبعني .

* * *

لقد طردها .

لم يقل لها : « اذهبي » ويكفي ان يكون قد قال لها : « لا تزعجي نفسك بالانتظار » ليعني هـــذا ما هو اشدّ وقعاً من الطرد في نفسها .

و « لسنا بعد وحيدين » .. وهذا يعني شيئاً ، يعني ان هناك ما يلهيه عنها ، وما يحمله على ابعادها ، بأية حيلة واية لهجة كانت .

وكان مارينللي لا يزال امامها ، فقالت له :

– يطردني اذن .. أشخصاً مزعجاً ، ام شحاذاً يطرد؟

وثار ثائر عنفوانها ، فتابعت :

– ألم يجد سوى اكذوبة « كثرة الاشغال » لابعادي ؟

وضحكت ضحكة صفراء ، وهي تقول :

– وهات انت يا مارينللي ، هات من أكاذيبك ما يبرّر كذبته ، ما يقلل من اهمية هذه الكذبة لديّ ، أية اشغال مهمة تمنعه من استقبالي ؟

واذ لم يجبها بشيء ، مضت في قولها ملحة :

– اكذب .. اكذب .. قل اول شيء يتبادر الى ذهنك ، وانطلقت بعدها راضية .

قال : اذا كان هذا ، فاليك بعض الحقيقة .

- هات .

- ان هنا في الواقع اشخاصاً لا يستطيع الامير ان يتخلى عنهم ، فهؤلاء الاشخاص تعرضوا منذ حين لحادث خطر ، وقد انقذهم الامير منه ، وفي جملتهم المركيز ابياني .

فهتفت ساخرة :

- من ؟

وتابعت منتصرة :

- من المؤسف ان تظهر كذبتك بمثل هذه السرعة .. هات غيرها .. لقد قتل قطاع الطرق المركيز ، ورأيت بعيني جثمانه في المركبة عند مدخل المدينة ، فهل يكون ما رأيت في الحلم ؟

- بأسف لا ... ولكن رفاقه هم الذين قد أنقذوا ولجأوا الى القصر ، وفي مقدمتهم خطيبته ووالدتها ، وقد كانوا في طريقهم الى سابيونيتا للاحتفال بالزواج .

- العروس وامها ... وجميلة هي العروس ؟

- أما تعرفين آميليا كالوتي ؟

ـ آميليـا كالوتي ... لك الويل يا هذا إن انا صدقت كذبتك .

ـ كيف ؟

ـ آميليا كالوتي ؟

ـ ما إخالك تعرفينها .

ـ بلى ، ولو كان اليوم فقط ... أهي حقاً العروس التعسة التي « يواسيها » الأمير ؟

وكان الخبيث ينظر اليها ذاهلاً ، فتابعت :

ـ والمركيز أبياني ، ابيـــاني الذي قتل منذ حين ، كان عريسها ؟

ـ نعم .

ـ مرحى ... مرحى .

ـ ولِمَ هذا كله ؟

ـ وددت لو أقبل الشيطان الذي حمله على ما فعل .

ـ من ... وعلامَ ؟

ـ نعم وددت لو اقبل الشيطـــان ، ولو انك انـت الشيطان يا مارينللي .

ـ سيدتي ...

- انظر الي جيداً ... ضع عينك في عيني .

- وبعد ؟

- ألم تفهم بعد ما أعني ؟

- لم أفهم .

- ألم تكن شريكه ؟

- في اي شيء ؟

- اقسم ... لا ، لا تقسم .. قد يضيف القسم خطيئة جديدة الى خطيئاتك التي لا تحصى ... بل اقسم ، اذ لا اهمية لخطيئة يرتكبها رجل ملعون .. الم تشاركه ؟

- انك تخيفينني يا سيدتي .

- اخيفك اجل .. واسألك بعد : اما يخامر قلبك الطيب شك يا هذا ؟

- فيمَ ؟

- اسمع .. سرٌّ يقف له شعر رأسك .. يجب ان لا يسمعنا ثالث .. اتسمع ؟

- مـاذا ؟

- الأمير قاتل .

فصاح الشقي ، كمن هاله الخبر :

ـ اينها المركيزة .. افقدت صوابك ؟

ـ فقدت صوابي .. الى الآن لا .. والواقع ما قلت. فابقه سراً .. لقد قتل الامير المركيز ابياني .. لم يقتله بيده ، بل بيد اعوان اعوانه ، وفي اي حال هو القاتل .

ـ كيف يخطر لك هذا ؟

ـ كيف .. بسهولة ، عندما اعلم ان الأمير تحدث الى آميليا كالوتي بالقرب من الكنيسة ، وكان حديثه مليء بالاعترافات القلبية والتوسلات ، وآميليا كالوتي هي التي قتل عريسها هنا دون مقدمات ، وهي التي « انقذت » و « جيء» بها الى هنا ... امصادفة كان كل هذا ؟

فلم يتمالك مارينللي من القول :

ـ إنك تعرضين برأسك للخطر يا سيدتي .

ـ فما لو اعلنت ذلك .. سأقف غداً في ساحة المدينة وانادي به على رؤوس الاشهاد .

وهمّت بالذهاب ، فاذا في الباب العقيد كالوتي ، وقد اقبل لاهثاً من عناء سرعته

* * *

لم يكن والد آميليا ينتظر الخبر المؤسف ، حين اقبل عليه احد الخدم في سابيونيتا ، وفاجأه بقوله :

لقد هاجمنا قطاع الطرق في دوزالو يا سيدي العقيد ، فجرحوا المركيز أبياني جرحاً خطراً ، وفزعت السيدة زوجك والآنسة ابنتك الى القصر .

فكاد صواب كالوتي يطير للنبأ .

وخف في عجل الى دوزالو ، ودخل الى القصر دونما استئذان ، فاذا هو امام المركيزة ومارينللي ، فقال للمركيزة معتذراً :

عفواً يا سيدتي .

فقالت المركيزة ، وهي لا تعرفه :

— لست من يملك حق العفو هنا ايها السيد ، فوجه كلامك الى رئيس الديوان .

واشارت الى مارينللي ، وكان هذا ممتقع اللون ، فقال له كالوتي :

— لقد بلغني النبأ المشؤوم يا سيدي ، فاصفح عن والد يدفعه القلق الى الدخول عليكم بهذا الشكل .

فتمتمت المركيزة :

— عن والد .. والد آميليا دون شك

وتابع كالوتي :

ـ اتكون زوجي وابنتي قد لجأتا حقاً الى هنا ؟

فقال مارينللي :

ليطمئن بالك يا حضرة العقيد ، فزوجك وابنتك هنا الى اجل ، ولم تصابا والحمد لله بسوء ، وهما الآن في حماية الأمير ، وسأمضي وانبئهما بقدومك .

ـ ولِمَ الانباء والانتظار ؟

ـ لأسباب .. فأنت لا تجهل موقفك من الامير ، فما هو في اي حال بموقف الصداقة ، وقد احاط زوجك وابنتك برعايته وعطفه لمجرد كونهما سيدتين ، ولا ادري اذا كان يرغب في مقابلتك .

ـ انت على حق يا سيدي .

وكان على مارينللي ان يصرف المركيزة ، فقال :

ـ أتسمح سيدتي بشرف مرافقتها الى المركبة ؟

قالت : لا تزعج نفسك .

فامسكها من يدها بشيء من العنف ، وقال :

علي ان أؤدي واجبي .

ـ أعفيك من هذا الواجب ، وعليك واجب اهم تؤديه لهذا الرجل المحترم .

أنسيت امر سموه ؟

ليأت سموه ويذكرني به .

فحار مارينللي في امره ، ولم يكن له ان يرتفع بارادته الى مقام المركيزة ، فاقترب من العقيد ، واسرّ في اذنه .

— سادعك هنا مع سيدة لا تملك قواها العقلية ، فلا تعر كلّ ما تسمع منها اهتماماً ، والافضل ان لا تدخل معها في حديث .

وتركها ومضى .. وكانت المركيزة تنظر اليه باحتقار عميق ، ولما توارى قالت لكالوتي :

— بمَ هامسك الشقي ؟

فردّد كالوتي كلمتها :

— الشقي ..

ولم يزد .. فقالت المركيزة :

— بالكذب ولا شك .. ومهما يكن من امر ، فليس ما قال لك من الحقائق التي تنتظرك .

فغمغم كالوتي قلقاً :

— التي تنتظرني .. أليس ما علمت كلّ ما ينتظرني هنا ؟

فضحكت ضحكة اشفاق ، وقالت :

- إنك لم تعلم شيئا ؟

- لم أعلم شيئاً ؟

- ما اطيبك من والد .. وددت لو انك والدي ، وارجو ان تثق بصدق شعوري ، فرابطة الحزن الذي يجمعنا هي نوع من صلات القربى ، واودّ ان اشاطرك حزنك وغضبك .

- حزني وغضبي ؟

واطلت الحيرة الغضبى من عينيه ، فقال :

- لا افهم يا سيدة ، فافصحي .

- وحيدة هي ابنتك كما علمت ، وسواء اكانت وحيدة ام لا ، فالوالد التعس هو أبداً وحيد .

فغمغم كالوتي كمن يخاطب نفسه :

- الوالد التعس .. أمجنونة من تقول هذا ؟

وسمعته يغمغم ، فقالت :

- مجنونة .. لقد امرّ اليك بأني مجنونة .. كذبة من كذباته العديدة ، وصدقني ان من لا يجنّ من مشاهد معينة .. لا يمكن ان يصاب بعدها بالجنون .

- وما بعد هذا يا سيدتي ؟

– لا تحتقرني .. انت رجل عاقل ، وعليك ان تفهم دون ان تحتاج الى شرح ، أيمكن ان تكون ناقص الفهم .

فصاح كالوتي ، كمن عيل صبره :

– الافصاح يا سيدة ، .. الافصاح ، او كنت في الواقع مختلة الشعور .

– اذن فاسمع : لقد قيل لك ان ابيـــاني جريح ، وابياني قد مات .

– مات ؟

– وقيل لك ان ابنتك بأمن في رعاية الامير ، ويا ليتها ماتت قبل ان تصبح في رعاية هذا الخليع .

فطار صواب كالوتي ، فصاح :

– والكلمة الاخيرة ؟

– اليكها بحروفها ، فركبها انت لنفسك .. في صباح اليوم يتحدث الامير الى ابنتك في الكنيسة .

– آه ..

– وبعد ظهر هذا اليوم بالذات ، اي في هذه الساعة ، تجالس ابنتك الامير هنا ، في هذا القصر .

فصاح كالوتي كأن صاعقة انقضت عليه :

ـ تحدث اليها في الكنيسة ، وتجالسه الآن هنا ؟

ـ تحدث اليها اجل ، وبعاطفة ملتهبة ، وبتوسلات حارة .. ولم يكن الحديث بالطبع تافهاً ، ولعل ابنتك قد جاءت الى هنا طواعية ، ولم تكن حادثة اختطافها سوى رواية ، سوى خطة مدبرة لتخلص من المركيز .

ـ كذب وبهتان .. انا اعرف ابنتي .. لقد حملت الى هنا مرغمة ، ومات المركيز دفاعاً عنها .

وراح يردد كمن به مسّ :

ـ كلاوديا .. يا للفرحة الكبرى .. يا لعظمة الامير .. يا للشرف الاكبر .

ـ لقد اثرت نفسك ايها الشيخ .

ـ إني اذن في كهف لصوص .

وفتح رداءه ، كمن يتأهب للقتال .. ثم تذكر انه اعزل ، فتابع بخيبة :

ـ لم يدر في خلدي اني سأحتاج الى السلاح .

فقالت المركيزة ، وقد اخرجت من صدرها خنجراً :

ـ اليك بهذا .. اليك به قبل ان يرانا احد .. ولديّ شيء آخر .. ولكن لا ، ليس السم سلاح الرجال .

فتناول كالوتي الخنجر قائلاً :

ـ شكراً لك يا ابنتي .

ـ خبئه في حزامك .. ليس ليدي الضعيفة ان تحسن استخدامه ، اما انت فقد تعوّدت يدك استخدام السلاح، وكما اصبت انا في صميمي هكذا اصبت انت ، فكلانا مصاب يطلب الانتقام .

وكان في عينيها بريق لم يدر كالوتي ما وراءه ، فكان عليها ان تزيده ايضاحاً :

ـ ان جرحك ايها السيد ليس بأعمق من جرحي ..ولم تعرف بعدُ من انا .. انا المهجورة المخدوعة المنسية .. قد يكون ذلك بسبب ابنتك ، ومع ذلك فأنا ارثي لهـــا ، لأنه لن يعتم ان يهجرها كما هجرني ، وكما هجر الكثيرات من قبل .

وكانت قد اصبحت كالنمرة الضارية ، فاندفعت تزمجر :

ـ حبذا .. لو يجمعنا القـدر نحن المهجورات حوله ، فنعمل فيه اظافرنا واسناننا تمزيقاً ونهشاً ، ونستخرج قلبه الفاسد النتن من صدره ونسحقه بأقدامنا .

* * *

لقد استعادت آميليا شيئاً من روعها بين ذراعي امها ، وحاولت ان تعرف ما جرى للمركيز ، فكان على الام ان تموّه الواقع ، بقولها :

ـ انه جريح ، وجرحه غير خطر ، وقد عاد بمركبته الى المدينة .

وكانت كلاوديا تفكر في زوجها ، وتنتظر ان تراه قادماً لانقاذهما ، للعود بهما الى المنزل العائلي ، بعد ان اطمأنت الى سلامة ابنتها ، ولم تجد من الامير ما يدعو الى الخوف .

وبينا هي كذلك ، خيل اليها ان ثمة شيئاً يقلق الامير ، وان مارينللي يفكر في حيلة تعيد اليه الطمأنينة .. وكان الاثنان يتهامسان ، مما أيقظ في صدرها الوساوس ، وحول وساوسها في الاخر حدساً :

اما يكون زوجها قد اقبل ؟

وطرقت اذنيها كلمات حادة ، وبالرغم من انها لم تفهم هذه الكلمات الآتية من الخارج ، فقد احست دافعاً يدفعها الى معرفة صاحبها ، وفي لحظة من غفلة الامير ورئيس ديوانه خرجت من الغرفة السجن ، واذا بها وجهاً لوجه

امام زوجها .

لقد صدق حدسها .

لقد صدق قلبها .

فها هو .. ها هو الزوج والوالد المحبوب ، وقد اقبل يضع حداً للمأساة ، ويعيد الى السجينتين حريتهما وهناءهما ، وهتفت لرؤيته :

ـ ادواردو .

وارتمت عليه متابعة :

ـ لقد كنت على يقين .. لقد كنت على يقين بانك ستأتي ، وقال لي قلبي انك هنا ، حين رأيت التجهم على وجوههم ، والهمس المضطرب القلق على شفاههم .

وانفجرت بالبكاء :

ـ وما اقول بعدُ .:. ويلي من جهلك ، وويلي من معرفتك ، ونحن في الحالين براء .

وكان كالوتي يتمالك ، ويتظاهر بالهدوء ، فقال :

ـ حسن .. هدئي من روعك ، وجاوبيني : أمات المركيز؟

ـ مات .

ـ اتحدث الأمير صباح اليوم الى آميليا في الكنيسة ؟

– اجل .. وليتك شاهدت خوفها ، وبأية حـــالة من الذعر عادت الى البيت .

فقالت المركيزة لكالوتي :

– أرأيت أني لم اكن كاذبة ؟

قالتها بضحكة مريرة :

– وددت لو انك لم تصدقي .

وراح يتمشى بخطوات واسعـــة ، كمن يريد الوصول الى امر .. وشعرت كلاوديا بشيء مما يداخله ، فقالت له :

– لقـد نصحتني بالهدوء فهدأت .. اليس لي يا عزيزي ان انصحك الآن بالمثل ؟

قال : ابعد هدوئي من هدوء ؟

ثم قال : ادرت آميليا بموت المركيز ؟

– لا ، ويخيل الي انها تتوقعه .

– وهي تبكي وتتألم ؟

– لقد بكت وتألمت كثيراً أول الامر ، ثم تمالكت بانتظار ما قد يقع ، ولم تتردّد في توقيف الامير عند حدّه .

ثم قالت راجية :

– والآن يا ادواردو ، يجب ان نرحل من هنا ، يجب

ان نمضي بسرعة .

فال : لقد جئت على جوادي ، ولا مركبة هنا ، فما العمل ؟ ثم قال للمركيزة :

.. اما تعودين بمركبتك الى المدينة يا سيدتي ؟

فقالت : اجل .

– اتتفضلين باخذ امرأتي هذه في معيتك ؟

– بكل سرور

وتذكر هنا قواعد الادب واللياقة ، فقال لامرائه :

– اقدم لك المركيزة اورزينا يا كلاوديا ، وهي سيدة راجحة الفهم وصديقة ، وقد احسنت الينا بالمركبة سريعاً .

قالت معترضة :

– ولكن آميليا .. أافترق عنها ؟

قال : لا بدّ من ذلك ، وسأمضي بها اليك ، حال وصول المركبة .

وخرج بها والمركيزة الى المركبة ، وقد شيع المركيزة بقوله :

– رافقتك السلامة يا سيدتي ، وسيأتيك من انبائي ما تتاحين اليه .

* * *

لقد كان قلق الامير شديداً لمجيء العقيد كالوتي الفجائي العاجل ، فهو يكره الرجل ويخافه في آن واحد ، ولم يكن له ان يشارك رئيس ديوانه في استصغار شانه ، فكان يقول :

– سيأخذها .. سيمضي بها .. ألي ان امنعه ؟

وكان مارينللي واقفاً الى نافذة تشرف على الحديقة ، فقال له :

– تعال .. تعال وانظر اليه يا مولاي فهو يتمشى بين اشجار الحديقة ، ويبدو هادئاً .. لقد سمعه خادمي يقول لامرأته : « ابعثي لنا بالمركبة »

وهدوءه يدل على انه غير ناقم ، ولمجرد مثوله بين يديك سيقدم لك الخضوع والشكر ، وسيمضي بابنته معللاً نفسه بالشرف الرفيع الذي ستسبغه عليها وعليه في آن واحد .

– وان لم يكن ما تقول .. انا اعرف الرجل ، فهو لا شك يتصنع الهدوء ، وما عسى ان تكون النتيجة ، فيما لو عاد بابنته ، وادخلها الى دير خارج امارتي ؟

– لن يفعل .

– واذا فعل ؟

ـ اذا فعل ...

وفكر اللعين قليلاً وقال :

ـ لقد وجدتها .. والحيلة في اي حال واجبة ، وعلينا ان نحتاط للمستقبل .

وكان لا يزال ينظر الى الخارج ، فقال :

ـ إنه يهمّ بالدخول ، فدعنا نتجنب مقابلته مرة اخرى ، وارجو ان يوافق مولاي على الخطة التي ارسمها .

فتذكر الامير خطط هذا الرجل الجهنمية ، فقال مهدداً:

ـ اوافق على ان ..

فقاطعه اللعين قائلاً :

ـ لا ، لا .. لا دماء ولا دموع .

* * *

تثور العاصفة وتهدأ .

والعقيد كالوتي بين ثورتها وهدوئها ساهم واجم .

انه ينتظر

والى مَ ينتظر ؟

فهو يريد ان يرى ابنته ، ان يرى الطهارة المهدّدة ، وينقذ الفضيلة .. يريد ان يقول لآميليا :

– اجل يا ابنتي ، .. سأنقذ الفضيلة ؛ واودّ لو ابكي لولا أني لم اتعلم البكاء ، وسأحرم قاتليك ثمرة جريمتهم ، وهذا ما سيعذبهم اكثر من الجريمة .

وكان الغضب يتحول في فمه ضحكة اشد هولاً من الغضب ، وهو يذكر : القتلة :

– هؤلاء الذين يتنقلون من شهوة الى شهوة ، لا الجسد يرتوي من فحش ، ولا النفس ترعوي عن غي . وكبيرهم الصغير يحلم ، ويرى العروس الذبيح في سريره ، فيمد يده القذرة اليها ، واذا في اعماق نفسه شياطين جهنم .

ولكن مارينللي قد ابطأ .

أما استأذن له بعد ؟

وكان قد عاد الى الداخل ، فاذا بمارينللي يوافيه معاتباً :

– اين كنت يا سيدي ؟

قال : اكانت ابنتي هنا ؟

– كلا ، بل الامير .

– عفواً ، فقد رافقت المركيزة الى مركبتها .

– وزوجك ؟

– راحت بمعيتها الى المدينة ، وسترسل لنا المركبة ، وربما

تصل هذه ، سيسمح لنا الامير بالبقاء هنا .

ـ لم تكن في حاجة الى هذا ، وكان سموّه يسرّ ، لو انه عاد بالأم وابنتها في مركبته الخاصة .

فقال ادواردو في هدوء نذير :

ـ ليس للابنة في اي حال قبول هذا الشرف .

ـ ولماذا ؟

ـ لأن عليها الاّ تعود الى كواستلا .

ـ ألا تعود .. ولمَ ؟

ـ لأن المركيز قد مات .

ـ وبعد ؟

ـ لم يبق من داع لبقائها في المدينة .

فكان على مارينللي ان ينضح اذ ذاك بما في نفسه الخبيثة ، فقال :

ـ ما من شك في ان للوالد حق التصرّف بابنته ، ولكن ثمة اموراً .. اريد ان اقول داعياً ، يضطر الوالد الى التنازل اليوم عن حقه ، فيسمح لابنته بالذهاب الى كواستلا .

فارتفعت قامة كالوتي ، وقال :

- واي داع لهذا ؟

- لك ان تقدر .

- لا تقدير هنا .. على ابنتي ان تذهب معي وستذهب.

وكان في لهجته ما يدعو الى التهيب .

ولم ير مارينللي ان يتحدى في تلك اللحظه غضبه ، فقال:

- ليس لي يا حضرة العقيد ان ادخل في جدل واياك، وقد اكون مخطئاً في تقديري وحكمي ، فما بقي الا ان يقول الامير كلمته في الامر .

وتركه ومضى .

وبقي كالوتي وحده يتساءل :

- غريب والله .. لم يبق لي حق التصرف بابنتي ، فهم يفرضون محل اقامتها ، ويريدون ان اخضع للفرض .

ويثور ثائره ، فيقول :

- كلٌ هنا يفعل ما يشاء ، وسأفعـــل انا بمشيئتي ، وسيرون اني اشاء وافعل .. الا احترام بعدُ للقانون ؟

***

وكان كالوتي يتقلب على نار غضبه ، عندما اقبل الامير متصنعاً اللطف ، وقال له :

- يا عزيزي النبيل كالوتي .. أكان يجب ان يقع ما وقع اليوم لنراك ؟

فقال كالوتي :

- ليس للمرء ان يزعج اميره ، فالامير يستدعيه عندما يشاء ، وحتى الآن . اعتذر لحضوري .

- ما اكبر اخلاقك .. وانت لا شك في شوق الى ابنتك ، فأطمئنك الى سلامتها ، ولكن القلق عاودها بعد ذهاب امها ، ولا ادري لماذا تركتها وذهبت ، وكنت أنتظر ان تستعيد العزيزة آميليا كامل روعها ، لاعود بها معاً الى المدينة ، وارى انك حرمتني نصف سروري بذلك ، ولن اسمح بحرماني النصف الآخر .

فقال كالوتي ، كمن تأثر بلطف الامير :

- هذا عطف كثير .. وارجو ان يسمح مولاي بأن لا تعود آميليـــا الى كواستلا ، حيث لا ينتظرها سوى الشفقة والشماتة .

- صدقت .. ليس من العدل ان تعرض بها لشفقة الاصدقاء وشماتة الاعداء ، فدعني اتدبر امرها واحميهـا من الاثنتين بنفسي .

- اشكرك .. وارجو ان تدع لي هذا الامر ، فما من عطف يغني عن العطف الوالدي ، وانا ادرى بما ينفع ابنتي ، بعد الكارثة التي اودت بسعادتها .

- وما ذاك ؟

- الدير .

فهتف الامير بقوله :

- الدير ؟

- والى ان تحتويها جدرانه ستبقى في حماية ابيها .

- ولكن .. حرام على الدير جمالها .. هذا الجمال الباهر يا كالوتي .. اصدمة واحدة في العمر تحملنا على اليأس ، وعلى مقاطعة الحياة بمثل هذه القسوة ؟

ولما رأى في صمت كالوتي ما يعني الاصرار ، قال :

- ولك بعد ما تشاء .. ان ارادة الوالد فوق كل ارادة .

وكان ما رينالي قد لحق بالامير ، ووقف الى جانبه لينتظر دوره بالكلام ، فالتفت كالوتي اليه ، وقال :

- والآن يا سيدي ؟

فتمهل مارينالي بالجواب ، ثم التفت الى الامير ، وقال

بلهجة القاضي الذي يلفظ حكماً :

– يؤسفني يا صاحب السموّ ان اعترض عطفك السامي، فثمة امور تحول دون النزول على ارادة هذا السيد ، وفي مقدمتها صداقة غالية لا بدّ من ان توفى حقها ، وانا ممن لا يهاودون في ايفاء هذا الحق .

فقال الامير متظاهراً بالاستغراب :

– اية صداقة ؟

– انت تعلم يا مولاي اية علاقة ودية كانت لي بالمركيز أبياني ، وقد اختارني في اللحظة الاخيره من لحظاته للانتقام له.

فلم يتمالك كالوتي من الهتاف بدهشة :

– انت .. اختارك انت ؟

– اسأل امرأتك .. لقد كان اسمي خاتمة انفاسه ، ولن انسى هذا حتى اهتدي الى قاتليه ، وانتقم له الانتقام الذي لم يسمع بمثله من قبل .

فقال الامير ، كمن تأثر بقوله :

– ولك عوني المطلق .

وقال كالوتي ، بشيء من التهكم :

– وكل تمنياتي الطيبة .

فقال مارينللي :

ـ ان ثمة من يشك في ان القتلة كانوا من قطاع الطرق .

فقال كالوتي ، بلهجته التهكمية :

من المزاحمين اذن ؟

ـ في الواقع .. وفي الواقع ايضاً ان الافضلية للمزاحم.

فهتف كالوتي ، وقد غلى دمه :

ـ الافضلية للمزاحم ؟

ـ هذا ما يقال .

ـ وما تقول انت ؟.. وابنتي تقضه ؟

ـ انا اردّد الى الآن اقوال الناس ، ولن يكون لي ما اقول ، الا بعد استجواب الفتاة .

فقال الامير مصادقاً :

ـ هذا ما يجب .

وتابع مارينللي :

ـ ولا استجواب الا في كواستلا .

فردّد الامير قوله :

ـ في كواستـــلا . لا مفر من الحق .. وآسف يا عزيزي كالوتي ان هذا سيغير الموقف .

فغمغم كالوتي :

ـ سيتغير الموقف .

وقرأ الامير على وجهه سطوراً لم ترقه ، فقال له :

ـ ما الذي يجول في نفسك ؟

فقال كالوتي كمن يخضع للامر :

ـ لا شيء .. سوى اني أتألم .. ولا بأس في عود آميليا الي كواستلا ، وسأعود بها في الحال الى والدتها ، ولن تفارق المدينة إلا بعد اعلان براءتها .

وضحك بمرارة ، وتابع :

ـ ومن يدري .. افليس بمحتمل ان تجد العدالة من الضروري استجوابي أيضاً ؟

فقال مارينللي بخبث :

ـ محتمل جداً .. فالعدالة تفضل ان تعمل ابداً أكثر مما يجب ، على ان تعمل اقلّ مما يجب ، ولذلك اخشى ..

قال الامير :

ـ وما تخشى ؟

ـ ان لا نستطيع الجمع بين الام والابنة قبل انتهاء التحقيق .

فصاح كالوتي :

– اتفصل الابنة عن امها ؟

– للضرورة .. كما يفصل الوالد عن الاثنتين ... شكليات يا سيدي .. وعلى هذا يؤسفني ان اطلب باصرار ابقاء آميليا تحت حراسة خاصة .

فكاد الوالد التعس يصعق لهذا ، وقال :

– تحت حراسة خاصة ؟

والتفت الى الامير يستنجده :

– ايها الامير ..

وكأنه فطن الى امر ، فحوّل نظره عن الامير الى مارينللي ، وراح يغمغم :

– تحت حراسة خاصة .. حق وعدل .. تحت حراسة خاصة .. أننا ان نعترض ؟

وكانت يده في جيبه تبحث عن شيء .

فدنا الامير منه ملاطفاً :

– تمالك يا عزيزي كالوتي .. لا تعني الحراسة الخاصة السجن .

فقال كالوتي ، وقد اخرج يده من جيبه :

– إني افكر واهدىء من روعي .

ـ لا سجن في الامر .. تطبيق قوانين فقط .. تطبيق قوانين لانقاذ فضيلة .. وما دام لا بد من وضع آميليا تحت الحراسة ، فأنا نفسي سأختار المكان اللائق بها ، ولا اجد افضل و « أليق » من منزل رئيس الوزراء ، وسأوكل الى نخبة من فضليات السيدات العناية بها .

وكان الامير يبالغ في « اللطف » . وعليه ان يمثل دوره الى النهاية ، فقال لمارينللي :

ـ اما انت يا مارينللي فانك تغالي في غيرتك على تنفيذ القانون .

ثم عاد الى كالوتي يقول :

ـ أما تعرف يا كالوتي رئيس الوزراء كريمالدي وامرأته الفاضلة ؟

فقال كالوتي ، وكأنه لا يتهكم :

ـ اعرفهما جيداً ، واعرف ايضاً ابنتهما الظريفة ، وهل في الامارة كلها من يجهل هؤلاء الكرام ؟

ثم التفت الى مارينللي قائلاً :

ـ اذا كان لا بدّ من ابقاء آميليا تحت الحراسة ، ايها القاضي باسم القانون والحق والعدالة ، فليكن ذلك في اعماق

السجون . وانا ابوها أصرّ على هذا .. لقد صدقت المركيزة اورزينا بقولها :

«إن من لم يجن من مشاهد معينة قد رآها ، لا يمكن ان يصاب بعدها بالجنون » .

فقال الامير ، كمن وقع في حيرة :

ـ أكاد لا أفهمك يا عزيزي كالوتي .. اريد لك الخير ولا تريده لنفسك .. أقول في بيت رئيس الوزراء وتقول في السجن .. لا ، لا .. في بيت رئيس الوزراء ، وسأقودها بنفسي اليه ، وستلقى هناك خير معاملة ، مقرونة بأوفر الاحترام .

وربت على كتفه متابعاً :

ـ اتفقنا .. بلى ، بلى ، اتفقنا .. اما انت فحريتك التـــامة لك ، تلحق بنـــا الى كواستلا ، او تعود الى سابيونيتا ، فالى اللقاء يا عزيزي .

وكان كالوتي في تلك اللحظة تائه الفكر ، وكأنه في لجة عميقة من الالم الصامت ، فتمتم :

ـ ولا ارى ابنتي .. ولا اقول لهـــا كلمة .. ليس افضل من منزل رئيس الوزراء .. انه حصن للفضيلة

حصين .. اليه يا مولاي لا الى سواه .. أمـــا تسمح لي بعد ، بأن اراها ، بان اطمئنها الى مصيرها ، بأن اقول لها ان الأمان كله في رعاية الامير ؟

وغرّ قوله الامير ، فقال :

ـ لك هذا يا كالوتي ، وليتك تودُّ ان تكون صديقي ومرشدي ووالدي .

* * *

وكان كالوتي قد ابتدأ يضحك .

كان يتهيأ للضحكة الاخيرة ، للضحكة الراعبة ، والامير وشيطانه يبتعدان عنه :

ـ قه ، قه ، قه .

واطلقها .. الضحكة التي هدمت كيانه :

ـ من يدري .. من يدري .. لعل ثمة تفاهم ، ولعل الطبيعة لعبت لعبتها ، ولعل من كانت ابنتي لا تستحق بعدُ ان اكون والدها .

وانقلبت الضحكة لعنة .. ولكن لا .. ليس له ان يلعن ، فالسماء وحدها تلعن وتبارك ، وللسماء وحدها ان تختتم المأساة .

وهمّ بالانصراف .

وهمّ بالخروج من نفسه الضيقة الى المـــدى الرحب ، الى حيث يلعب القدر في كل لحظـة لعبته ، ويسوق في طرق المجهول ضحاياه .

همّ بذلك ، حين اقبلت آميليا ، فقال في نفسه :

ـ ولكن القدر يأبى الا ان اختتم انا المأساة .

وارتمت الفتاة بين ذراعيه هاتفة :

ـ انت هنا .. انت هنا يا ابي .. وامي ، والمركيز ؟

وكمن راعها قلقه ، سألته بلهفة :

ـ أقلق انت ؟

قال كمن يلجم العاصفة :

ـ وهادئة انت ؟

ـ هادئة .. اما أننا لم نفقد شيئاً ، واما اننا فقدنا كل شيء ، وعلينا في الحالين ان نتمالك .

ـ وما ظنك في ما حدث ؟

ـ لقد فقدنا كل شيء .

ـ وهادئة انت .. قد يكون في ذلك خجلي .. وما تعنين بقولك : فقدنا كل شيء ؟

ـ لقد مات المركيز .. لقد مات .. قرات ذلك في عيني امي الرطبتين .. وأين امي الآن ؟ قال :

ـ لنلحق بها .

ـ لنلحق بها .. لنفرّ من هنا يا ابي .

ـ لنلحق بها .. لا ... انت في مخالب خاطفيك ، وستظلين كذلك .

فهتفت ملتاعة :

ـ وسأظل كذلك ؟

ـ وحدك .. بعيدة عني وعن امك .

ـ وحدي ؟!

وتعالى هتافها :

ـ ابداً .. ولست اذن بأبي .. لك ان تدعني في مخالبهم اذا شئت ، ولكني سأحطم هذه المخالب ، او اتحطم فيها .

ـ اما قلت إنك هادئة يا ابنتي ؟

ـ قلت .. وما الهدوء .. أيد مشلولة في الحضن ، وآلام مكبوتة في الصدر ، وتجلّد إن طال ولد الانفجار ؟ فاستيقظت كبرياء كالوني في صدره ، وقد بات على يقين

من براءة ابنته ، ومن طهارة قلبها وروحها ، فقال لها بحنو :

ـ هدوءك هدوئي يا ابنتي ، فتعالي الى صدري .. لقد ابدعتك الطبيعة نموذجاً لكمال فنهـــا ، وإني لفخور بك الفخر الذي اردته لنفسي ، ولكن يد الاثم والفحش تريد انتزاعك مني ، وباسم العدالة الزائفة سيحجزون عليك في بيت كريمالدي .

فهتفت الفتاة كأن حية لسعتها :

ـ يريدون انـــتزاعي منك .. من ، من هم ، من المجرمون هؤلاء ؟

ـ لقد جن جنوني .

واستل خنجره من جيبه وقال :

ـ كدت اغمد هذا الخنجر في صدر احدهما .

ـ لا ، بحق السماء .. ان الحياة هي كل ما يملكه الخطاة .

وحاولت اختطاف الخنجر من يده :

ـ إليَّ به ، إليَّ بهذا الخنجر .

ـ ليس بدبوس للشعر هذا .

ـ ليكن دبوساً .

– إلى هنا .. أليست الحياة واحدة يا آميليا ؟

– والبراءة واحدة يا أبي .

– وهي تعلو على القوة .

– ولكنها لا تعلو على الاغتصاب

واندفعت تقول :

– القوة .. لأي منا ان يجبه القوة ، اما الاغتصاب فهو . . . انا اعرف بيت كريمالدي ، بيت المجون والفسق والخطيئة ، وزيارة واحدة مع امي لهذا البيت ، اثارت في نفسي من الاضطراب ، ما لم تقو التوسلات الدينية على تلطيفه في اسابيع .

ودنت منه راجية :

– إليّ بهذا الخنجر .

قال ، وقد بات كالمشدوه :

– خذيه .

فتناولت الخنجر بلهفة ، وهمت بطعن نفسها ، فانتزع واختطفه منها ، وقال :

– لا ، هذا ليس ليدك .

قالت ، وقد غدت كالمجنونة :

ـ صدقت بدبوس شعر .

واخذت تفتش عن دبوس في شعرها ، فوقعت يدها على الوردة التي كانت تزينت بها ، فتناولتها هاتفة :

ـ انت .. انزلي ، انزلي .. لستِ لشعر الفتاة التي يريد ابي ان اكونها .

وكان كالوتي يصغي اليها ، والدموع قد تحجرت في عينيه ، فتأوه قائلاً :

ـ أواه ، يا آميليا .

قالت تردّد تأوهه :

ـ آواه ، يا أبي .. ما تريدني لعار ، وفيمَ تتردّد ؟

ومزقت الوردة تمزيقاً ، وتابعت بحزن :

ـ لقد كان ثمة آباء يطعنون بناتهم لانقاذهن من الاثم ، ولاعطائهن الحياة مرة اخرى .. لقد كان ذلك فيما مضى ، واما الآن .. فلا .

فزجر كالوتي قائلاً

ـ بلى ، يا ابنتي .. فيما مضى واليوم ، وأنا ممن ينقذون بناتهم .

وفي لحظة واحدة طعنها ، الطعنة التي اشتهتها ،

فهتفت مهللة :

– لقد قطفت الوردة ، قبل ان تقصفهـــا الريح ، وتطرحها موطئاً للاقدام .

وخفت صوتها ، وهي تردد :

– دعني الثم يدك .. يدك الابوية ..

ولم يكن للوالد التعس سوى كلمة واحدة يقولها :

– يا الهي .. ماذا فعلت ؟

* * *

وسمع الامير شيئاً ، فهرول سائلاً :

– ماذا جرى ؟

ووقف من الجثمان الطاهر ، وقفة الخاطىء امام الخطيئة ، وهو يردّد :

– يا للهول .. يا للهول !

وكأن ضمير مارينللي استيقظ ، وهو يتبعه ، فصاح :

– الويل لي .

والتفت الامير بحزن يمـــازجه السخط الى كالوتي ، وقال له :

– ايها الوالد الظالم .. ماذا فعلت ؟

فقال كالوتي يردّد قولاً سمعه :

ـ لقد قطفت الوردة ، قبل ان تقصفها الريح ، وتطرحها موطئاً للاقدام .

ونظر بحنو الى ابنته ، وقال :

ـ اليس كذلك يا ابنتي ؟

فاستجمعت الفتاة المحتضرة بعض قواها ، وقالت :

ـ بلى ، يا ابي .. ولكن .. انا فعلت هذا ؛ لا انت .

قال : انا ، لا انت . انا يا آميليا .. لا تفارقي الدنيا كاذبة خاطئة .

واكبّ يلثم جبينها ، فصعّدت زفرة ارتياح ، واسلمت روحها الطاهرة بين ذراعيه .

وكان قد اصبح كالمجنون .

فنظر الى الامير نظرة كأنها الحمم ، وقال :

ـ تقدم الآن . تقدم وخذها ، فهي كما ترى جميلة .. جمّع شهواتك وتقدم .. تقدم ومرّغ هواك بالدم ... ولكن لا .. ان دماً طاهراً كهذا لا يُمرّغ فيه العهر ، ولا تسرح في التراب الذي رواه ، الحشرات .

وكانت عيناه جاحظتين ، وصوته يدوي كالاسد الجريح

في صميمه . وحدّق في وجه الامير وقال :

– اتنتظر ان احوّل هذا الخنجر الى صدري ، لأختم المأساة بمأساة .. لا .

ورمى الخنجر الذي كان لا يزال في يده ، قائلاً وصوته يتهدّج جنوناً :

– واليك به .. انه على قدميك ، وهو الشاهد على جريمتي ، وانا ماضٍ الى السجن ، حيث انتظر حكمك ، بانتظار اليوم الذي سيجمعني بك ، امام اعدل الحاكمين .

وكان الامير مطرقـــا ، لا يجرؤ على النظر اليه ، وفي يقظة الم عميق ، التفت الى مـارينللي ، الى الثعلب الذي كان يرتجف خبثاً وهلعاً ، وقال له :

– هيا .. التقط هذا الخنجر .. التقطه وصفّ الحساب .

وفهم مـارينللي ما يعني ، فالتقط الخنجر كالمصعوق ، ووقف كالجماد لا يتحرك ، فدنا الامير منه ، واختطف الخنجر من يده ، قائلاً :

– ولكن ، لا .. ليس لهذا الدم الذكي الطاهر ان يختلط بدمك .

وصاح بصوت صاعق :

ـ اغرب .. الى الابد ، يا لعين .

وكان الألم قد سحق نفسه ، فرفع عينيه الى السماء ، هاتفاً :

ـ يا الهي .. اما يكفي الامراء شقاؤهم بأنهم بشر ، لتسمح للشياطين بان يتقمصوا في جلود اعوانهم ؟

ملاحظة :

هذه القصة وضعها الشاعر الالماني «ليسنك» بالالمانية ، مسرحية . ونقلهـــا الى العربية ، مسرحية ايضاً ، الدكتور امين رويحة . ولكننا لفتنا نظر الدكتور الى ان القاريء العربي قد يرتاح الى مشاهدة المسرحيات ، ولكنه لا يرتاح الى قراءتها ؛ فخوّلنا صديقنـــا الدكتور رويحة حق تحويلها الى قصة فحولتها « دار الحكمة » الى قصة ، مع المحافظة التامة على المعنى والروح ، وعلى الفاظ الحوار .

دار الحكمة

للتأليف والترجمة والنشر

بيروت محطة رينو بناية تامر

تلفون : ٣٣٤٥٨

ستضع بين ايديكم قريباً

١ - كتاب طريق فلسطين - قصة =

- الحلقة الرابعة من سلسلة « الثائرون في التاريخ »

جندب بن جناده اي ابو ذر الغفاري

اعظم واعند واشجع ثائر

832.6:L63uA
لسنغ، غتهولد الفرايم
العرس المأتم
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031838